خفايا التاريخ

حاتم إبراهيم سلامة

المثقف للنشر والتوزيع

بالتعاون مع

البجوينية المصرية للنشر والتوزيع
B&E FOR PUBLISHING

❖ اسم العمل: خفايا التاريخ

❖ الكاتب: حاتم إبراهيم سلامة

❖ دققه وحرره: إسلام م. صديق

❖ إخراج داخلي: سليل الفراعنــة

❖ تصميم الغلاف: محمد أيمن

❖ مستشار أدبي: إنتصار ربيع عبد الحميد

❖ رقم الإيداع: 2020/22215

❖ الترقيم الدولي: 2 - 64 – 6797 - 977 - 978

9 789776 797642

جميع الحقوق محفوظة للناشر

وأي انتهاك سيعرض صاحبه

للمساءلة القانونية

هذه النسخة مخصصة للقراءة فقط

ولا يجوز إعادة طبعها أو نسخها أو نشرها

إلا بعد الحصول على إذن كتابي من الناشر)

-(للتواصل)-

002 01000147443

b.e.publishing.33@gmail.com

محمد حسين ميزار

رئيس مجلس الإدارة

كل ما ورد في هذا العمل مسئولية مؤلفه، من حيث الآراء والأفكار والمعتقدات، وكونه أصيل له غير منقول، وأية خلافات قانونية بهذا الشأن لا تتحملها دار النشر

خفايا التاريخ

بقلم

حاتم إبراهيم سلامة

المثقف للنشر والتوزيع بالتعاون مع البحيثية المصرية

إهداء

إلى كل باحث عن الحقيقة

ملتمس للصواب بين ركام من الزيوف والمفتريات..

إلى كل باحث حر لا يفتح أذنيه وعقله لكل ما قيل وروي

فيجد ويجتهد حتى يقف على الحق ويرى الصدق.

الأمة

التي تعرف تاريخها وتعتز به

هي الأمة التي تعرف كيف تدافع عن حاضرها

"دكتور حسين فوزي"

مقدمة

يقولون دومًا: إن أعداء الإسلام لا يكفون عن الكيد له، وقد ركزوا في هذا التحدي على محاور مهمة، وتيقن لهم أنهم إن نالوا منها، فإنهم سيقضون على هذا الدين وينهون وجوده، وكانت أبرز هذه المحاور (القرآن والكعبة والمرأة وعقيدة القضاء والقدر).

والحق أن محور التاريخ كان من أبرز ما لعب عليه الأعداء، حتى يكون طريقهم لتشويه جذور هذه الأمة، والطعن في أصولها، ومنابت قيامها، فمتى انقطعت الصلة بالجذور صار الوجود هشًا ضعيفًا يمكن إسقاطه بكل يسر وسهولة.

ومن هنا انطلقوا في خطط خبيثة ومؤامرات فاجرة، يعملون ليل نهار، وبشتى الطرق والوسائل، على تشويه تاريخنا المجيد، والإساءة إلى رموزه السامقة، وتسويء سمعة مجتمعاته، وإظهار النقائص وتضخيم الهنات، حتى يهيأ للرائي أنه تاريخ مشوب بالعار والخزي، وأن البراءة منه هي الطريق المثلى للتحلل من تبعاته، وانساق وللأسف في فلك هذا الخداع كثير ممن ينتسبون لأمتنا، فتنكروا لحضارتهم، ولفظوا هويتهم، واستقبحوا تراثهم، وصاروا حربا على ماضيهم.

ولله در شوقي في قوله:

مثل القوم نسوا تاريخهم .:. كلقيط عَيَّ في الناس انتسابا

وهذا هو الهدف، أن توجد أجيال وتظهر نفوس، لا تستلهم من ماضيها أي معنى للبطولة، أو تاريخا يبعث للفخر واليقظة والحماس، فتظل خاملة خامدة فاشلة متراجعة.

ومن ثم؛ كان لابد لنا من جهاد جبار، ننافح فيه عن هذا الماضي، ونرد فيه عن هذا التاريخ المجيد المشرف، ونُظهر الحقيقة التي يحاول الخونة والأعداء مواراتها وإخفائها، حتى يتضح الحق، ويجلو البيان عن أرقى من عرف العالم وشهدت الدنيا من حضارة عظيمة، وأبطال وعباقرة ورموز فذة قل نظيرها ووجودها في الأمم.

إن دراسة التاريخ مهمة، واستلهام عبره وأحداثه ضرورة لبعث واقع ناهض ومشرق، وكما يقول شيوخنا: "إن التاريخ هو ذاكرة البشرية، وسجل أحداثها، وديوان عبرها، والشاهد العدل لها أو عليها، وكثيرًا ما تعين دراسته على فهم الواقع الماثل، لا سيما إذا تماثلت الظروف، وتشابهت الدوافع، وكثير من القضايا الحاضرة، لها أبعادها التاريخية بعيدة الأغوار، فمن لم يعرف أغوار ماضيها، لم يدرك أسرار حاضرها".

وللتاريخ أهمية عظمى في بناء الأمم، والمحافظة على هويتها وشخصيتها، بل على قوتها، وقدرتها على الشموخ، والاستطالة، والاستمرار، فهو جذور الأمة التي تضرب بها في الأعماق، فلا تعصف بها الأنواء، ولا تزلزلها الأعاصير، ولا يفتنها الأعداء، وهو ذاكرة الأمة، والذاكرة للأمة كالذاكرة للفرد تمامًا، بها تعي الأمة ماضيها، وتفسر حاضرها، وتستشرف مستقبلها.

فالإنسان الذي يفقد ذاكرته، يرتد - على ضخامة جسمه - طفلاً غرًّا لا يعي شيئًا مما حوله، عاجزًا عن أن يتبصر في أمسه، أو يشعر بيومه، أو يتطلع إلى غده، وكذلك الأمة حين يضيع منها تاريخها، ويشوش في عقول أبنائها، ويشوه في عيونهم، عندئذ يضيع منها الطريق، وتسلم مقودها لمن يوجهها، ويعود يملأ ذاكرتها بما يوجه خطواتها حيث يريد.

فالتاريخ ليس علم الماضي، بل هو علم الحاضر والمستقبل في واقع الأمر وحقيقته، فالأمة التي تستطيع البقاء، هي الأمة التي لها ضمير تاريخي، ومعرفة بالتاريخ، وعشق له، والتاريخ هو (عرض الأمة) كما سماه كاتب العربية الأكبر "عباس محمود العقاد".

لقد كانت جولتنا في هذه الصفحات التي غاصت في التاريخ، تحاول أن تبحث عن الحق وحده، وتنتصر للحق وحده، وسط المبالغات

والإشاعات والأكاذيب والخداعات، التي تأولتها الألسنة هنا وهناك، أو خدع بها المؤرخون قديمًا وحديثًا، وبين هذه السطور نجد دعوة قوية لقراءة التاريخ قراءة مختلفة، وقراءة يقظة، وقراءة واعية، ليست بقراءة العميان والمغفلين، وإنما هي القراءة الحرة التي لا تصدق كل ما يقال، ولا تسلم لكل ما يشاع، حتى تُعطي كل ذي حق حقه بلا ظلم أو جور أو عدوان، فلا تجهل نصًا على حساب نص، ولا تهمل سيرة على حساب سيرة، ولا تنتصر للهوى على حساب الإنصاف، ولا تجامل أحدًا على حساب الحقيقة، فمن أخطأ يُدان، ومن ظُلم يُعان، سنجد هنا شخوصا ومواقفَ، ما نعرفه عنها خلاف ما سنقرأه، فمنهم أبطال نجدهم خونة، ومنهم خونة نراهم في الحقيقة أبطالا مغاوير.

سوف نقضي وقتًا طيبًا ممتعًا مع هذه الصفحات، آملا أن نجد فيها ومعها ما يبهر أذواقنا، وينعش عقولنا، ويوقظ معارفنا، إنها سياحة في معالم التاريخ، التي تُصحح معارفك، وتقوم أفهامك، وترد عنك كثيرًا من الأخطاء التي ترسخت في ذهنك، وتركزت في عقلك، واستولت على انطباعك، بفعل المزورين المشوهين الحاقدين، لتستيقظ الحقائق في وجدانك، فتقف على مصيرك، وتهتدي إلى غايتك، وتدرك ما خفي عنك، وما جهلته أسرار الماضي.

حاتم إبراهيم سلامة

حقائق مكذوبة

مع الأيام ومواصلة البحث والنظر والقراءة العميقة، لا تزداد علما ومعرفة فقط، وإنما تتكشف لك كثير من الأمور التي كنت تفهمها فهما مغلوطا، وتستقيم لك كثير من المفاهيم التي كنت تظنها على غير حقيقتها.

ولعل هذا النتاج الأخير، من أجلِّ ثمرات القراءة والاطلاع، وهو ما يدعو الإنسان دوما أن يكون شغوفا بها، ليدرك ما خفي عليه، ويصحح كثيرا أخطاءه وظنونه وأوهامه.

نعم.. فهناك كثير من الأخطاء تملأ حياتنا وثقافتنا، وتشوش على فهمنا ووعينا وتقدمنا وانطلاقنا، ومن العجب أننا نعتقدها الأصل الثابت، والحقيقة المقررة، لأننا لا نقرأ من جهة، ومن جهة أخرى لا نحسن القراءة وأدواتها الذكية من البحث والنظر والفحص والمقابلة والتحري والنقد المنطقي العاقل، ونستجيب سريعًا لما يشيعه أعداء هويتنا والراغبون في تشويه تراثنا وتاريخنا ورموزنا من شبهات وضلالات وأكاذيب وجهالات وسخافات.

كثيرًا ما كنت أكتب في أمور، وأسعد لمعرفتها ونقلها وعرضها على جمهوري من القراء، لمجرد أنها وردت في كتاب تراثي، أو مرجع كبير من

مراجع التاريخ، وسرعان ما أكتشف الخطأ الكبير في التعامل معها، حينما نخضعها لمقاييس التحري والعقل والمطابقة مع الواقع التاريخي في فتراتها.

وهنا تذكرت قول الأستاذ (أنور الجندي) - رحمه الله - في كتابه شهادة العصر والتاريخ: "كان الخطأ مازال متصلا بكتاباتي في أمور تاريخية كانت ماتزال مغماة، ومن هنا وقع الخلاف بيني وبين كثير من المفاهيم التي كانت بمثابة مسلمات مع أنها خاطئة في الحقيقة خاصة في مجال الأدب والفن، لقد تبين لي أنه في ضوء إيماننا بالإسلام يلزم أن نعيد النظر في مناهج الأدب والنقد الأدبي والتاريخ والاجتماع والنفس".

ولا شك أن هذا دومًا شأن القراءة التي تضيء لنا مجاهل العقل وظلام الفهم، إنها تمامًا كشمعة مضيئة يسير بها صاحبها في العتمة القاتمة، فيرى بها كل شيء ويبصر بها كل مستور، ولو أنها سقطت من يديه وانطفأ ضوؤها لأظلمت الدنيا أمامه، وتوقف عن المسير والخطو للأمام والوصول للمراد.

منذ فترة كتبت مقالا تحت عنوان (جنون المسرفين) صببت فيه جام غضبي على بعض الشخصيات التاريخية التي رُويتْ عنها أخبار جنونية في السرف والمخيلة، وكان أبرزها زواج قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون حاكم مصر، وما ذكر فيه من مهر أسطوري وتكاليف الزواج الخيالية، وأرقام تجهيزها وموكبها الهلامية.

فكان منه: "حيث تضمن "دكّة" من أربع قطع من الذهب، عليها قبة من الذهب، مشبوك في كل عين من تشابيكها قرط معلق فيه حبة من الجواهر القيمة، التي يصعب تحديد قيمتها الفعلية، إضافة إلى "دكّة من الذهب" لتضع عليها قدمها كلما دخلت إلى حجرتها، ومئة هاون من الذهب، وألف مبخرة من الذهب، ومئات الصناديق المحتوية على الملابس والأقراط والسلاسل الذهبية وفصوص الأحجار الكريمة، وكان من بين ملابسها الداخلية ألف "تكّة" ثمن الواحدة منها عشرة دنانير، وهو ما وصل بتقديرات تكلفة الجهاز إلى مليون دينار ذهبي"

ثم ختمت المقال بما ذكر من نفس هذه الصور الفلكية الأسطورية، في زواج المأمون خليفة بني العباس من بوران بنت وزيره الحسن بن سهل.

وقلت: "كم أشعر بالخجل وأنا أقرأ بمثل هذا في تاريخنا، والذي يُعطي دلالة على جهل القائمين بغاية الإنسان ناهيك عن غاية المسلم".

ومع القراءات الواسعة والاطلاع العميق، تبين لي أن كثيرًا من المؤرخين ولعوا بالغرائب، وسلموا بالمبالغات والتهاويل التي تُجافي المنطق وينكرها العقل، وأن التصديق بمثل هذه الأمور، يرجع لضعف الحس النقدي، والتسليم بالمنقول دون تأمل وفحص ومطابقة لركائز العقل والمنطق.

ولعل المحدِّثين كانوا أذكى وأمهر، أو أكثر تنبها لمثل هذه الأمور والمبالغات التي لا تستقيم مع روح الإسلام واحترامه للعقل البشري، حينما جعلوا من علامات الحديث الموضوع (المكذوب)، أن تكون فيه مبالغات شاهقة في الوعد والوعيد، كحديث لقمة في بطن جائع خير من بناء ألف جامع، وحديث ضمان الجنة لمن كان اسمه محمدا، وحديث تحريم الجنة على من صبغ بالسواد.

وهو المنهج الذي كان خليقًا بالمؤرخين أن ينحوا نحوه، ويسلكوا مسلكه، فلا يسلمون بمثل هذه الغرائب التي وضعها قُصاص الإدهاش، ورواة الغرائب، والتي صارت في تاريخنا سُلمة تصيبه بالسذاجة والسخف.

ولعل التاريخ لا يقتصر على هذه المبالغات فقط، بل وجده الحاقدون الطامعون المرجفون فرصة جيدة لتشويه الرموز العظيمة التي زانت بها حضارتنا، فدسوا الأكاذيب عنهم، وشوهوا سيرتهم، ونسبوا إليهم ما لم يكن منهم، أو من أخلاقهم وسمتهم وسياستهم واستقامتهم!.

* * * *

التاريخ بين التزوير والتزويق

لعل التاريخ هو الألعوبة الأكبر في أيدي المستبدين والطغاة المستهترين بقيم العدالة والإنصاف والمساواة والمفرطين في حقوق الشعوب، إنهم يحاصرونه ويعتبرونه من أشد أعدائهم الذين يتربصون بهم ليفضحوهم ويكشفوا للجماهير سوء ما يفعلون.

نعم فالتاريخ هو الألعوبة الكبيرة في أيديهم، حينما يقدمون على تشكيله حسب ما يريدون ويطمحون، لأنهم لو تركوه، فلن يرحمهم، ولن يتغاضى عن زلاتهم وسوء أفعالهم، وحماقة سياساتهم، ومن ثم كان لابد من العدوان عليه وتصميمه وتشكيله في إطار ما تمليه آراؤهم وأكاذيبهم، يُعينهم على ذلك سلطانهم وقدرتهم وزبانيتهم السفلة من الإعلاميين القابضين على منافذ التوجيه والتأثير، ويبدو أن هذه الجريمة وتحديدًا في وطننا مصر قديمة عريقة، تمتد جذورها من قديم الزمان منذ عهد الفراعنة، لقد هُزم رمسيس الثاني على يد الحيثيين أو أنه لم ينتصر، ولكنه رجع ليوهم الشعب المسكين والأمة الغافلة، وضحك على الجميع وسجل انتصاره الكاذب على جداريات وقحة تشير إلى الكذب المفضوح.

وفي العصر الحديث قام الملك فؤاد بجمع المؤرخين الأجانب، وأمرهم أن يعيدوا كتابة تاريخ العائلة الحاكمة بصورة إيجابية وضيئة، وتلميع

لشخصية محمد علي التي فضحها أو هدمها الشيخ الجبرتي في تاريخه.. لقد كان كتاب الجبرتي محظورًا حتى جاء عصر الخديوي توفيق عام ١٨٨٠ وسمح بنشره.. بل إن هذا الحظر القديم بدأ قِدمه من عهد محمد علي نفسه حينما سمع أن الناس يتداولون صحفًا كتبها الشيخ الأزهري عبدالرحمن الجبرتي، ترصد وقائعه وتسجل ظلمه وقهره للرعية، يقول الأستاذ جمال بدوي في كتابة (مصر من نافذة التاريخ): "لم يكن عبد الرحمن مؤرخًا حكوميًا يكتب ما يرضي الحاكم، ولكنه كان مؤرخًا شعبيًا من الطراز الأول، يُسجل ما يراه في أمانة ودقة، دون ابتغاء مرضاة السلطة أو خوفًا من سخطها، ومثل هذا المسلك الأخلاقي، لم يكن مما يُعجب الحكام، لأن الحاكم يريد من المؤرخين المعاصرين له أن يحرقوا له البخور وينتحلوا البطولات، ويزيفوا الحقائق فيجعلوا من مخازيه مجدًا، ومن سوءاته عزًا، فإن لم يفعلوا، سخط عليهم وعصف بهم، وهذا ما فعله محمد علي الكبير، عندما نمى إلى علمه ما كتبه الجبرتي عنه، في صفحات ذاعت شهرتها وتداولتها أيدي الناس، فلم يرحم شيخوخته، وأوعز إلى أعوانه فاغتالوا ابنه خليل أثناء سيره في شارع شبرا، وارتاع الرجل وهو يتلقى جثمان ابنه الصريع، وفهم بذكائه دوافع الجريمة، فامتلأت نفسه همًا وكمدًا، وظل البقية الباقية من أيامه يبكي ابنه حتى ابيضت عيناه من الحزن، فكُف بصره كما كفت يده عن الكتابة، إلى أن وافاه الأجل فغادر الدنيا حزينًا مكلومًا عام ١٨٢٥م"

ويقول كثير من الباحثين: إن الجبرتي نفسه قد مات مقتولاً بمكيدة من محمد علي كما أنه لم يكتف بموته وإنما أرسل من أحرق بيته وفيها مكتبته العامرة وبعض أجزاء من تاريخه.

وهكذا كان محمد علي في قمة الطغيان والتجبر ومثال صارخ للحاكم الظالم المستبد الجبان الذي أذل البلاد والعباد وتجرع الناس على يديه صنوفًا من السخرة والهوان.

بعض الباحثين يؤكد في موطن آخر أن قصة المعتصم بن الرشيد في فتح عمورية، لم تكن على هذا النحو الذي نتغنى به وتردده دومًا ألسنتنا حينما نذكر قولة (وامعتصماه) فالفتح موجود، والانتصار مذكور، والإنجاز كان عظيمًا وغير مسبوق.. لكن قصة المرأة التي نادته من وراء آلاف الأميال فيها نظر وكلام، حيث روى أحداث فتح عمورية عدد من المؤرخين ولم يذكروا قصة المرأة أو يلفتوا إليها، كابن جرير الطبري مؤرخ العباسيين وابن كثير في البداية والنهاية.. وأوعز بعضهم ذكر بعض المؤرخين لها كابن خلدون وابن الأثير والإمام بن الجوزي، أنهم تناقلوها دون تمحيص من الشعراء والجماعة "المزوقاتية" و"المطبلاتية" وحملة المباخر، الذين يقفون دوما خلف الحكام، ينسجون الخرافات ويؤلفون الأمجاد ويتقنون وضع البهارات لتلميع الحكام، وجعلهم في نظر الرعية أبطالًا مغاوير وفرسانا خارقين، ومما يتعجب منه أن

بعض الكتب تنسب ذات القصة لهارون الرشيد ومعاوية والمأمون والحجاج الثقفي والوليد بن عبد الملك، ولكن حظ المعتصم أن من سجل له الحادثة، هو الشاعر أبي تمام صاحب الحماسة في قصيدته الشهيرة التي افتتحها بقوله:

السيف أصدق أنباءً من الكتب .:. في حده الحد بين الجد واللعب

وليست هذه هي المرة الوحيدة التي فرض فيها الشعر نفسه على الرواية، وكان له مناط الاستدلال والأثر، فقد كان فيما بعد ما حدث من المتنبي تجاه كافور الإخشيد، فكثير من الشخصيات التاريخية تم تشويهها، والإساءة إلى سمعتها، وأُشيع عنها كثيرٌ من تهم الزيف والبهتان، التي لا تمثل شيئًا من حقيقتهم وتتبرأ منها حياتهم، وإذا بحثت وتقصيت عن هذه التهم وأثرها، لوجدت أنها بفعل فاعل، كان من مصلحته أن يسيء إلى هذه الشخصية، ويثير حولها غبار الشبهات، وليته فرد أو اثنان أو ثلاثة، فتاريخنا وتراثنا قديمًا وحديثا، مليء بالضحايا المظلومين الذين عجزوا أن يدافعوا عن أنفسهم، حين استغل خصومهم غفلة الناس وقلة وعيهم، فرجل ككافور الإخشيد حاكم مصر، لمجرد أنه رفض أن يمنح عطاءه للمتنبي الشاعر، ويحقق طموحاته هرب منه الثاني وكال له شعرًا قازعًا لاذعًا مريرًا، مازال يتردد بكلكله حتى اليوم، وإذا سألت أي إنسان عن حقيقة الإخشيد، لا يذكر لك إلا الصفات المنكرة الخبيثة التي ذكرها المتنبي في شعره، أما حقيقة الرجل، فإن المؤرخين يشهدون أنه كان فطنًا جيد العقل حكيمًا داهية، دائم

الجلوس لقضاء حوائج الناس ليلا ونهارًا، يتهجد ويمرغ وجهه ساجدًا لله سبحانه عابدا متبتلا، ويذكرون أن مجلسه كان قبلة الأدباء والعلماء، يقرؤون عليه كتب السير وأخبار الأمم، ويدارسونه مسائل العلم، وحينما تقرأ ذلك تتعجب من هذا الحقد المستعر، الذي صبه عليه المتنبي في أبياته النابية والتي منها:

أكلما اغتال عبد السوء سيـده.:. أو خانه فله في مصر تمهيد؟!

صار الخصي إمام الآبقين بها .:. فالحر مستعبد والعبد معبود

أما هم فلم يسجل لهم أحد من "المذوقاتية" و"المطبلاتية" أتباعهم، ولا أعرف هل نعتمد على الشعر والمديح في تسجيل تراثنا وذكر تاريخنا؟! أم بالروايات التي يمحصها الإخباريون والرواة، نحن نتمنى ونحب أن تكون حادثة المرأة وتلبية المعتصم لنجدتها في عقد تاريخنا ونادرة من نوادر رجاله ومواقفهم المبهرة النيرة، لكن حبنا للحق وتحرينا للصدق وطلبنا للحقيقة، أعمق من ذلك بكثير.

ومن قريب قرأت عن شجر الدر، تلك المملوكة الجميلة القوية التي قُدر لها أن تحكم مصر اثنين وثمانين يومًا، وتلعب في تاريخها دورا بارزا لا يُنسى، لقد كانت أمةً لا يعرف أصلها ولا جذورها، تمامًا كغيرها كثير من المماليك، لكن وجودها على عتبة السلطان، وتصدرها للقيادة لا يحرمها أبدًا

من وجود المداهنين المنافقين من حولها، فقد تطوع أحدهم ونسج لها قصة لا يقف عليها المؤرخون أو يستطيعون تأكيد صحتها، حيث لم يرد عن أصولها شيء، وهي نفسها كانت صامتة لا تتكلم بشيء، ولكنها لما كانت زوجة حاكم أيوبي، ووصية على العرش من بعده، كان لابد من رسم أصولها بالمحسنات والتجميلات، فقالوا: ((إنها من شجرة عريقة الأصول فأبوها هو السلطان (أزبك البهلوان) ملك تبريز من بلاد العجم، وأمها هي الأميرة السلجوقية الشهيرة (فاطمة خاتون)، وإن والدها الذي لم يكد يسمع باقتراب المغول من بلاده، حتى ترك كل شيء وتخلى عن شعبه وأسرته، ومضى مبايعًا طائعا ذليلا للمغول يقدم لهم خدماته ومساعداته في تدمير الممالك الإسلامية، لكن (فاطمة خاتون) كانت أما عظيمة في موقفها وإرادتها وتصرفها، فما أن علمت بجريمة زوجها، حتى أعلنت أنها طالق منه، وحملت طفلتها ورحلت إلى بلاد السلطان جلال الدين أخر ملوك خوارزم، وطلبت منه أن يتزوجها، وأخذت تشد أزره حتى يصمد أمام جحافل المغول، الذين هجموا على بلاد الإسلام كالعاصفة العاتية، وكانت قوتهم الشرسة لا يصمد أمامها شيء فاكتسحت ممالك خوارزم، وفر جلال الدين ومات في جزيرة معزولة في بحر قزوين، وتلحق به فاطمة خاتون التي قامت برسالتها كزوجة أحسن قيام))

لو تتبعنا بطون كتب التاريخ وحياة العصور والأشخاص، لوجدنا كثيرا من المواقف المزورة والمشاهد الزائفة التي تحتاج إلى بحث وتمحيص

وتبيين وإظهار للصواب من الخطأ، وتزييف التاريخ له مآرب عديدة، ففوق من يداري سوءاته، هناك مثلا من يحقد على غيره فيشوه صورته، وهناك الضعيف الخامل الذي يتسور على البطولة ورموزها، وهناك دنيء الأصل خسيس المنبت، الذي يحاول أن يخلق لنفسه هالة كبيرة من النسب الشريف والأصل الكريم، وهناك كذلك من يزيفه لنشر فكره الذي يؤمن به ويحقق الغلبة على نقيضه، الذي ربما يكون أقوى منه وأهدى سبيلا، وهناك من يرفض التزوير الفج، ولكنه يقبل بنوع من التزويق والتحلية والإضافات التي يراها من قبله مشروعة مباحة، والحق أن المبادئ لا تتجزأ وأن التزوير واحد قل أم كثر.

ولعل هذه الفئات المنافقة مازالت موجودة إلى اليوم، ومواقعها بارزة في حاشية الحكام والطواغيت، تقوم بدورها في التزييف والتزويق والتحسين، وهو دور لا يمكن الاستغناء عنه أو نسيانه، وهم أشد من عرفت الأرض فسادًا وعدوانًا وظلمًا؛ لأنهم يهدمون تاريخ الأمم الذي هو الضمير والذاكرة والجذور التي يبنى عليها الحاضر.

* * * *

احذروا لعنة التاريخ!

لا تعتقد أنك بموتك قد انقطعت حياتك وانتهى ذكرك وراح وجودك. وإنما تظل الأيام حاملة ذكراك، ويظل التاريخ راويًا لمواقفك وأفعالك، واصفًا محللا ذامًا أو مادحًا، شاكرًا أو لاعنًا مكبرًا أو مستحقرًا.

لقد كانوا يروون لنا في صبانا قِصصًا لأناس أشرار يعيشون في قريتنا، وكانت كل أعمالهم أذية وظلم لعباد الله، ومازال الناس حتى اليوم يتذكرونهم ويلعنون أيامهم وأسماءهم، ويتوارثون هذه اللعنات جيلا بعد جيل، وعلى النقيض كان هناك أتقياء صالحون لا ينساهم الناس أبدًا لبرهم وخيرهم وتقواهم، وصورتهم الطيبة التي كانوا عليها.

وهكذا أنت في ميزان الأيام وحكم التاريخ، تظل حيًا لا تموت، فلتتخير لنفسك إما أن تكون من الممدوحين أو المذمومين وكما قال شوقي:

دقـــات قلب المرء قائلة لـه .:. إن الحيـاة دقائق وثوان

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها .:. فالذكر للإنسان عمر ثان

ولأجل هذا عَرف العقلاء أن التاريخ قاس لا يرحم، وأنه مهما كان سلطانهم وقوتهم يجبران الناس على خشيتهم وتعظيمهم، فإن التاريخ لا

يخشاهم ولا يفزع منهم، ولن تستطيع أي قوة في الأرض أن تمنعه عن رأيه فيهم، أو تحول بينه وبين أن يُقيم لهم محكمته العادلة وعقابها المنصف.

أما الذين لا يرهبونه ولا يخشونه فليتمادوا في غيهم كما يشاؤون، ليستحقوا بجرأتهم وبجاحتهم عذاب السموم الذي سيصليهم به صباح مساء وليل نهار، فليستمتعوا بطغيانهم وشرورهم وليغفلوا كما يشاؤون، موعدهم مع التاريخ الذي سيمزق كل لحظة عاشوها وتنفسوها، ويهين في الوحل كل مجد شيدوه على حساب الناس وكرامتهم وحريتهم وسعادتهم .

كما أن التاريخ ذكي، ذكي جدًا، فمهما كنت خادعًا ماكرًا ولديك المهارة في خداع الجماهير، فإنك لن تستطيع أن تخدع التاريخ الذي سيكشف كل شيء، ويستظهر كل خفي من معالم الحقيقة التي اجتهد البغاة في تحريفها ومحوها وتزييفها.

انظر للتاريخ، فمازلنا إلى اليوم نسخط على عبد الناصر، الذي خدع الأمة وصوره إعلامه المضلل بأنه البطل القومي والزعيم الخالد، اليوم وبعد ذهاب طغيانه وجبروته، عرف الناس حين انجلت أيامه السوداء، وتكشفت لهم حقيقته الحقيرة التي استغلت الحكم ليرضي أهواءه وأمراضه النفسية، التي كانت تتوق لزعامة زائفة على حساب الشعب، هذا الطاغية الذي قتل الحرية وبدد ثروة البلاد، وأهان كرامتها وأذل شعبها وتسبب في هزيمة ٦٧

التي قُتل فيها آلاف من أبناء الوطن الأبرار، وجيشه المفدى بلا حرب أو معركة، وسلمهم بكل سهولة لليهود ليدفنوهم أحياء في أرض سيناء.

ما زلنا إلى اليوم نلعنه، ويلعنه معنا كل بيت مات فيه شهيد، ممن تسبب في ضياعهم وهلاكهم برصاص اليهود الأنجاس.

ولو أنه وأترابه الآثمون، كانوا يخشون التاريخ، لما تجبروا في الأرض، أو أقدموا على هذه السياسات الحمقاء التي جلبت لهم ولحكمهم ولأبنائهم من بعدهم لعنة لا تُغفر ولا تنمحي.

وما أروع ابن عباد حاكم أشبيلية وما أحكمه وأعقله! حينما أخبر ولده الرشيد أنه عازم على استدعاء المرابطين من المغرب حتى يتصدوا لجيوش النصارى، التي أوشكت أن تلتهم الأندلس وتمحو منها الوجود الإسلامي:

"أي بني، والله لا يسمع عني أبدًا أنني أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى فتقوم عليّ اللعنة في منابر المسلمين مثلما قامت على غيري"

فهل نتعلم ويتعلم غيرنا من مقولة ابن عباد، أن خشية التاريخ واجبة، وأنه جبار لا يرحم من ظلم وخان وطغى وتجبر؟!

ولكن التاريخ الذي سجل حكمة ابن عباد وموقفه الخالد، هو نفسه ذات التاريخ الذي لم يرحمه وسجل له يوم الطين، وسجل له خيانته العظيمة للأمة.

لقد كان الرجل في منعة وعز وملك وأبهة ونعيم وسلطان لا حدود له، لكنه ما لبث أن انقلب عليه الزمان وتنكرت له الأيام، فأبدلته مكان العز ذلا، ومكان الملك أسرًا، وهوانًا وانكسارا، وكان ما حل به عقابًا على خيانته للإسلام وقتاله للمسلمين واستعانته على إخوانه في الدين بالنصارى الكافرين، حتى يُحافظ على بقائه وملكه، ويُرضي أطماعه وأنانيته وغروره، حتى كانت هزيمته في عام ٤٨٤هـ على يد كتائب المرابطين وقائدهم البطل يوسف بن تاشفين، لقد كانت مأساة أليمة لرجل حكم السواد الأعظم لشبه جزيرة الأندلس أكثر من ربع قرن، حين قبض عليه وعلى نسائه وأبنائه وبناته، وكانوا نحو مائة، وأرسلوا إلى إفريقيا في مدينة أغمات على بغلة يركبها هو وزوجته، بينما حرس المرابطين يركبون الأحصنة والخيول إمعانًا في ذله على أثيم خيانته وقبح جريرته، وأسكنوه في بيت وضيع بدائي، ووضعوا عليه حارسًا غليظًا.. وقيدت رجلاه في الحديد حتى لا يخرج من البيت، ومنع عنه المال والأقوات، فأصبحت بناته حفاة عراة، يغزلن الغزل ويبعنه في الأسواق، ولا يجدن من يشتريه منهن، وأصبح الناس يتصدقون عليهن بالمال والطعام والملابس.

ولكن ما يوم الطين؟ وما علاقته ودلالته في حياة ابن عباد؟ لقد كان هذا اليوم من أسوأ الأيام في تاريخ الأمة الترفي، والذي يحمل في خبره سفاهة منقطعة النظير، وبطرا بالنعمة إلى حد كبير، فماذا حدث؟!

لقد كان ابن عباد ولوعا بزوجته اعتماد، يحبها حبًا شديدًا، حتى أنه لا يصبر على فراقها ساعة، ودفعه هذا الشوق والغرام أن يشتق لنفسه لقبًا من اسمها فسمى نفسه "المعتمد" وفي دوحة هذا الحب الكبير غمرها زوجها بالنعيم والعز والرفاهية التي تروى فيها قصص تشبه الأساطير، وكان منها يوم الطين، حين رأت الملكة اعتماد جواري يبعن اللبن، وقد شمرن عن سوقهن وسواعدهن يخضن في الطين، فحنَّت اعتماد إلى ماضيها حينما كانت جارية، قبل أن ينتشلها المعتمد من عالم العبودية وقالت له: أشتهي أن أفعل أنا وبناتي كفعل هؤلاء الجواري، فما كان منه إلا أن بادر إلى تلبية طلبها الذي أرهق خزينة الدولة وكلفها أموالا طائلة، حيث أمر بالعنبر والمسك والكافور، فسحق بماء الورد ليكون في هيئة الطين، وأحضر القرب والحبال لاعتماد و بناتها الأميرات، فحملن القرب والحبال، ورفعن عن سوقهن وخضن في طين العنبر والمسك والكافور.

وبعد ذهاب هذا النعيم، وفي يوم من هذه الأيام التي باتوا يتجرعون فيه الذل والقهر ألوانا وأشكالا، غاضب المعتمد زوجته فقالت له: لم أر منك

خيرًا قط.! فقال لها: ولا يوم الطين؟! فصمتت وبكت واعتذرت، ولم تتحمل المرأة هذا الذل الكبير، فماتت مقهورة محسورة، فحزن عليها المعتمد ومات بعدها بثلاثة أشهر.

ويرحلا عن الدنيا ولا يتبقى من ذكرهما سوى يوم الطين، الذي إن شئت أن تسميه بيوم السفه، أو يوم السرف أو يوم الحماقة، أو يوم الافتراء، أو يوم البطر، فلا غضاضة من ذلك، لأنه يليق بكل هذه المعاني .

* * * *

كتابان جنيا على أمتنا

ما زلت إلى اليوم أعد عزوف شبابنا من هواة الأدب عن كتب التراث خطأ فادحًا، لكننا مع الأيام تتبين لنا المشكلة الكبرى، والتي ليست في هذا العزوف والترك، بقدر ما هي في مساحة الوعي والإدراك، وفهم مغزى بعض المؤلفات التي يمكن لها أن تُدر مصيبة كبيرة، وتشكل خطرًا مزمنًا على عقول الجيل، تجاه اعتزازه بأمته وهويته وتراثه وانتمائه.

كتاب واحد ككتاب الأغاني، كفيل أن يقوم بهذه المهمة، ويفقد أي عربي أو مسلم اعتزازه بأمته واحترامه لتاريخها، لو لم يعرف طبيعة الكتاب، وكنهه، ومراميه، وغايته، وطريقته ومنهجه، وغرضه، كما يسهل تحقيق ذلك إذا لم يكن للقارئ فقه عميق بتاريخ أمته وحضارتها، وكفاحها، وعظمتها، وتأثيرها الحياتي على مر الزمان.

كثير من مفكري التغريب وأدباء التنوير والحداثة، اعتمدوا هذا الكتاب وروجوا له، وأفهموا العالم كله مسلمين قبل غيرهم، أن هذا الكتاب هو الصورة التي تعكس حكاية العرب وقصتهم ووجودهم في الحياة، كتاب ساقط منحرف، لم يترك نبيلا من المسلمين إلا وزج به في عالم اللهو والمتعة ومساخر الفسوق، ليشوه أعلام المسلمين، ويصور للدنيا، أن هذه الأمة أمة لهو ومتع وشهوات، ولم تكن أبدًا أمة جد وجهاد واجتهاد وجنوح للمعالي،

حتى الصحابة الكرام رضي الله عنهم، لم يسلموا من شره وزوره، ولو رجع القارئ إلى الكتب الصحاح المعتمدة، لما وجد شيئا من هذا الهزل في خلافة هارون الرشيد الذي لطخ سمعته بالطين وكال له كثيرًا من التهم والكيد، ولوجده من أعظم ملوك الدنيا وأقربهم وأعرفهم وأخشاهم وأتقاهم لله تعالى.

كتاب يعج بالمساخر والهزل والفسوق والفجور والدعة والتبذل والانحلال والتردي الأخلاقي، ويريد أن يقول لك: هذه هي حضارة المسلمين وهؤلاء هم المسلمون، وهذا هو تاريخهم.

ومن بلوغ الفُجور أن الكتاب في رواياته يعتمد على السند والرواة، ليوهمك وأنت تقرأ أنك تقرأ شيئًا صحيحًا معتمدًا وأخبارًا موثقة، أو يُلبس على ظنك أنك تقرأ صحيح البخاري أو صحيح مسلم، وما هي إلا أسانيد ساقطة مكذوبة، وإخباريات تفوح بالإفك وتنطق بالزور.

وهكذا لا يدرك كثير من شبابنا في نشوتهم باطلاعهم على هذا الكتاب، أنهم يمتلكون قنبلة هائلة تنسف كثيرًا من ذاتيتهم وانتمائهم وثقتهم في أمتهم وتاريخ أماجدها، وهي الغاية التي تبعها طه حسين وغيره لتأصيل هذا الغرض.

وهو لا شك كتاب ماتع في الأدب والسمر والغناء بشهادة الأدباء، لكن الكارثة أن نُحوِّله نحن بجهلنا إلى كتاب علم وفقه وتاريخ، فلا يصح أبدًا أن يُسكت عما فيه من الشعوبية والدس، والكذب الفاضح والطعن والمعايب.

"وقيض الله تعالى لأحد الغيورين وهو الشاعر العراقي والأستاذ الكريم وليد الأعظمي بتأليف كتابه القيم الذي سماه (السيف اليماني في نحر الأصفهاني صاحب الأغاني)، حيث ميز فيه الهزل من الجد، والسم من الشهد، ويكشف ما احتواه الكتاب من الأكاذيب ونيران الشعوبية والحقد، وهي تغلي في الصدور، كغلي القدور، وأخذ يرد على ترهات الأصفهاني فيما جمعه من أخبار وحكايات مكذوبة وغير موثقة، تسيء إلى آل البيت النبوي الشريف، وتجرح سيرتهم، وتشوه سلوكهم، كما تناول مزاعم الأصفهاني تجاه معاوية بن أبي سفيان والخلفاء الراشدين الأمويين، بما هو مكذوب ومدسوس عليهم من الروايات، وتناول الحكايات المتفرقة التي تضمنها الكتاب مما يطعن في العقيدة والدين الإسلامي، وتفضل الجاهلية على الإسلام وغيرها من الأباطيل، التي عج بها الكتاب من الكفر والسخرية من الوحي واليوم الآخر والصلاة والافتراءات على آل البيت والقدح في سلوكهم، ووسمهم بالغفلة والجبن، واتهامهم بسماع الأغاني وقضاء أوقاتهم في اللعب واللهو".

ويأتي ثاني هذه الكتب هو تاريخ الطبري، وهو إمام عظيم من أئمة الدين، لكن كتابه في التاريخ مصيبة عظمى لمن لم يدرك غايته ومنهج مؤلفه في تصنيفه، ففي الوقت الذي جعله كثير من المفكرين والأدباء، مرجعًا أساسيًا في كل ما يخطونه من التاريخ في كتاباتهم، وكل ما يعرضونه على الأمة، يأتي الطبري ككتاب تجميع وتسجيل، دون الانتقاء أو التصحيح أو التمحيص للأسانيد والوقائع والمرويات، اللهم إلا في النزر اليسير.

فهو يروي عن الضعفاء والكذابين والوضاعين والمتهمين والمتروكين، كما يروي كذلك عن الثقات، فالرجل يجمع كل ما قيل عن أي حادثة من الحوادث، مكذوبة كانت أو صحيحة، فالمهم هو الجمع ونقل كل ما قيل، ورصد كل ما أشيع، ككتاب يعرض إليك حالة المجتمع وانطباعه عن تلك الحادثة.

يقول محب الدين الخطيب:

"إن مثل الإمام الطبري ومن على شاكلته من العلماء الثقات الأثبات في إيرادهم الأخبار الضعيفة، كمثل رجال القضاء إذا أرادوا أن يبحثوا في قضية، فإنهم يجمعون كل ما تصل إليه أيديهم من الأدلة والشواهد المتصلة بها، مع علمهم بتفاهة بعضها أو ضعفه، اعتماداً منهم على أن كل شيء سيقدر بقدره.

ولهذا فقد كان لا يفرط في خبر مهما علم من ضعف ناقله، خشية أن يفوته بإهماله شيء من العلم أو الفائدة، ولو من بعض النواحي، إلا أنه يُسند كل خبر إلى راويه، ليقف القارئ على قوة الخبر أو ضعفه، من كون رواته ثقات أو مجروحين، وبذلك يرى أنه أدى ما عليه، خصوصاً وقد وضع بين أيدي القارئ، كل ما وصل إلى يده من نصوص وطرق مختلفة للخبر".

ولم يكن الرجل ذا قصد خبيث في هذا الأمر، فقد كان يرى التاريخ أمرًا بعيدًا عن الاحتجاج وعلم الدين من القرآن والسنة، ومن أجل هذا رخص لنفسه فعل هذا الشيء الذي وللأسف، كانت له الجناية الكبرى على تاريخنا، خاصة في العصر الأول من الإسلام، وكان منفذًا نفذ منه أعداء الأمة لترويج الشبهات، ونقل الآفات والصور الشوهاء لأمتنا ورموزنا، والتي لم تقم على سند قيم برواة ثقات أوفياء عدول.

إننا نجدد نداءنا بأن القضية ليست بأن تقرأ وتطلع، وإنما بأن تعي وتفهم وتبحث وتسأل وتتعلم وتتحقق.

* * * *

كلمة حانية إلى مبغضي معاوية

وجدت مؤخرًا وللأسف الشديد، بعض الإخوة ممن ينتمون لأهل السنة والجماعة، ولا يحسبون في شيء على الشيعة أو الخوارج، يتهجمون في حواراتهم وكتاباتهم على الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ويذكرون معايبه، ويعلنون بغضه وكرهه، ويؤكدون أنه أول من سن الاستبداد وألغى الشورى، وتسبب فيما نحن فيه اليوم، حتى يوشك أحدهم أن يحمله قضية فلسطين والعراق، والبوسنة والهرسك، وكل بلايا المسلمين، بل يريد أن يحمله أوزار الشيطان نفسه، وما قام به من إغواء البشر.

ومذهب أهل السنة ينظر لهذه الحادثة أو هذه الفتنة بأنها خلاف بين الصحابة، فمنهم من أصاب ومنهم من أخطأ، ومن أخطأ فله أجر ومن أصاب له أجرين، ومهما كان منهم، فإنهم حملوا راية الدين، وحموا الإسلام، وحافظوا على الشرائع، وأقاموا الملة، وأحيوا شعلة الجهاد، إن الكلام على الصحابة الكرام وتناول أمر سيدنا علي وسيدنا معاوية رضي الله عنهما، لا يكون أبدًا كما نتناول شخصيتي السادات وعبد الناصر، فهؤلاء صحابة، لهم حق الصحبة، وخدمة الإسلام في فجره الأول.

هذا هو المفهوم الذي غاب عن كثير من مسلمي اليوم، أنهم رأوا ظاهر الخطأ في حق سيدنا معاوية رضي الله عنه، فسول لهم ذلك سبه والتجرؤ

عليه، ووسمه بأبشع الصفات وأقذع السباب، وغاب عنهم حكم سب الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وجزاء من ينالهم بسوء، وهم خير القرون وأجلها قدرا، حتى أن بعض المالكية قد أفتى بقتل من سب الصحابة.

نعم إنه خطأ، وإن ما فعله يبدو في نظرنا خطأ، ويحكم عليه عقلنا بأنه خطأ، لكنه من الصحابة، وصحبته لها الشفاعة والحصانة من أن تنالها ألسنتنا، والنبي العظيم صلى الله عليه وسلم نهانا عن ذلك وحذر منه، فقال: "لا تسبوا أصحابي" ومعاوية رضي الله عنه من هؤلاء الصحابة الذين أقاموا الدين، وجاهدوا في سبيل الله ونشروا دعوته .

وقد دعا له خير الأنام صلى الله عليه وسلم: "اللهم اجعله هاديا مهديا".

وقال عنه حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنه: "مَا رَأَيْتُ رَجُلاً كَانَ أَخْلَقَ لِلمُلْكِ مِنْ مُعَاوِيَةَ، كَانَ النَّاسُ يَرِدُوْنَ مِنْهُ عَلَى أَرْجَاءِ وَادٍ رَحْب، لَمْ يَكُنْ بِالضَّيِّقِ، الحَصِرِ، العُصْعُصِ، المُتَغَضِّبِ"(١).

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله: "معاوية عندنا محنة، فمن رأيناه ينظر إليه شزرًا اتهمناه على القوم، يعني الصحابة"

(١) رواه عبد الرازق في المصنف إسناده صحيح.

سئل عبد الله بن المبارك رحمه الله أيهما أفضل: معاوية بن أبي سفيان، أم عمر بن عبد العزيز؟ فقال: والله إن الغبار الذي دخل في أنف معاوية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من عمر بألف مرة، صلَّى معاوية رضي الله عنه خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: سمع الله لمن حمده، فقال معاوية: ربنا ولك الحمد، فما بعد هذا؟

وقال الإمام ابن كثير" انبرى أهل البدع بالطعن في أحد الصحابة، ألا وهو معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، والزور والبهتان الذي رُمي به معاوية بن أبي سفيان ليس وليد الساعة، ومع الأسف اغتر بعض أهل السنة بمثل هذه الطعون في معاوية رضي الله عنه وأصبحوا يرددونها في المجالس العامة، والله المستعان"[١]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "إن معاوية ثبت بالتواتر أنه أمَّره النبيُّ كما أمَّر غيره، وجاهد معه، وكان أمينا عنده يكتب له الوحي، وما اتهمه النبيُّ صلى الله عليه وسلم في كتابة الوحي، وولاَّه عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي كان من أخبر الناس بالرجال، وقد ضرب الله الحق على لسانه وقلبه، ولم يتهمه في ولايته".

(١) البداية والنهاية.

رأيت هذه الاعتراضات الكثر حينما رددت بين البعض: أن من العلماء من يعد عصر معاوية وحكمه، أشبه الخلفاء بعدل عمر بن الخطاب، لولا ما شابه من قضية التحكيم وولاية يزيد، فلو لم يكن فيه حياته إلا هذان الأمران، لكان حكمه مما يتحاكى به الركبان ويردده الزمان.

وعن الأعمش أنه ذُكر عنده عمر بن عبد العزيز وعدله، فقال: فكيف لو أدركتم معاوية؟ قالوا: يا أبا محمد يعني في حِلمه؟ قال: لا والله، بل في عدله.

وقال شيخ الإسلام مرة أخرى: ومعاوية رضي الله عنه كان أفضل ملوك هذه الأمة، فإن الأربعة قبله كانوا خلفاء نبوة وهو أول الملوك، كان ملكه ملكًا ورحمة، كما جاء في الحديث: "يكون الملك نبوة ورحمة، ثم تكون خلافة ورحمة، ثم يكون مُلكًا ورحمة، ثم مُلكًا وجبرية، ثم مُلكًا عضوضا"، وكان في ملكه من الرحمة والحلم ونفع المسلمين ما يعلم أنه كان خيرًا من ملك غيره، وأما من قبله فكانوا خلفاء نبوة، فإنه قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: تكون خلافة النبوة ثلاثين سنة ثم تصير ملكًا"، وكان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي - رضي الله عنهم - هم الخلفاء الراشدون والأئمة المهديون، الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم:"عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين".

وقال الذهبي رحمه الله: "ومعاوية من خيار الملوك الذين غلب عدلهم على ظلمهم، وما هو ببريء من الهَنَات، والله يعفو عنه، وحسبك بمن يؤمره عمر ثم عثمان على إقليم ـ هو ثغر ـ فيضبطه، ويقوم به أتم قيام، ويرضى الناس بسخائه وحلمه، فهذا الرجل ساد وساس العالم بكمال عقله، وفرط حلمه، وسعة نفسه، وقوة دهائه ورأيه".

* * * *

الطاغية الذي صوروه بطلا

حينما كبرنا واتسعت مداركنا، وعرفنا طريق المكتبات، واستمتعنا ونحن نتصفح مراجع التاريخ، كنا نتعجب مما نرى ونشاهد، فكثير مما قرأنا كان على خلاف ما درسنا، حتى زال العجب حينما أدركنا غاية المنحطين في طمس كل ما من شأنه أن يبعث الحنين للإسلام والانتماء لحضارته.

فحاكم كمحمد علي، كان من أولئك الذين صُدمنا فيه حينما عرفنا تاريخه، وأدركنا حقيقته، وتطلعنا إلى فترة حكمه، فهو الذي كانوا يصورنه لنا على أنه الزعيم الكبير والحاكم العظيم الذي بنى مصر الحديثة، ونقلها نقلة زاهية على كافة الأصعدة؛ السياسية، والتعليمية والعسكرية، والاقتصادية، ومن جهة أخرى أهالوا التراب على حياته المخزية في حكم مصر، وسياسة الرعية بالذل والإرهاب والبطش والتنكيل، لقد حاول الملك فؤاد كثيرًا كما ألمحنا سابقًا، أن يجمل صورة جده ويخفي آثاره السيئة فاستقدم المؤرخين الأجانب ليشيدوا زيفًا بمناقب محمد علي، لكن الأقلام الحرة كانت يقظة مدوية تسطع على مدادها شمس الحقيقة الجلية.

ومما يثير الضحك والسخرية، ويبعث الدهشة إلى هذا الحد من استغفال العقول، أن قام أحد المهرجين في عام ١٩٤٤م، بوضع كتاب عن محمد علي ضمن سلسلة أعلام الإسلام، وتحدث عنه باعتباره "علما من

أعلام الإسلام عاش في القرن الـ ١٣ الهجري، فأي إسلام هذا، والرجل قد ولى وجهه صوب الغرب وحضارته الأوربية، وكان سيفا مسلطا على الخلافة الإسلامية التي هي رمز الإسلام، وكان العدو والهادم لدعوات الإصلاح الديني التي قامت لإحياء مجد الإسلام؟! كما ألف غيره كتابا يشيد فيه ببطولته ويلتمس له الأعذار والتبريرات لما قام به من أفعال وتصرفات.

ويخاطبني البعض بقولهم: لماذا لا تكون منصفا في حديثك عن محمد علي، كما أنصفه الجبرتي ومن بعده الأستاذ عبد الرحمن الرافعي، حين تناولوا مساوئه وذكروا محاسنه؟ فأقول: إن المعيار عندي والمقياس في الحكم على الأشخاص ليس بما أقام وأشاد وبنى وعمر، ولكن بحكمه في الناس وعدله فيهم ورحمته بضعفائهم، ورعايته لفقيرهم وضائعهم ومشردهم، إذ لا قيمة للبناء، ولا اعتبار للإنشاء، إذا أُهدرت أرواح الناس، ودهست حريتهم، وانتهكت كرامتهم، ورخصت آدميتهم، لا قيمة لمُلك الدنيا كله، إذا أُهين الإنسان وضاع أمله في حياة حرة كريمة، فهلا سمحتم لنا أن نقيس بطلنا المزعوم في ضوء ميزاني ومقياسي!

إننا الآن وفي سياحة يسيرة في بعض ما كتبه المؤرخون وسطروه عن الطاغية الأثيم، تتكشف لنا كثير من الحقائق المخفية عن هذا الرجل الذي خدعونا فيه و صوروه بطلًا عظيمًا، وهو على خلاف ذلك جملة وتفصيلًا، فقد

كانت البداية حينما أراد الغرب أن يقضي على الدولة العثمانية، الحصن الأخير لقوة الإسلام، والرمز الجامع لأمته في رقعتها الشاسعة، والعقبة الكأداء في طريق تفكيك دُوَلِهِ وشعوبه، وإضعاف وجودها، كان محمد علي بغيتهم المنشودة، وإبليسهم الذي يبحثون عنه ليحققوا عن طريقه مآربهم الرخيصة، فاحتضنوه ونموه وغذوه، واستقطبته فرنسا ومحافلها الماسونية المنتشرة في الشرق، فأنشأت له جيشًا مدربًا على أحدث الأساليب ومجهزًا بأحدث الأسلحة، وأنشأت له ترسانة وأسطولًا بحريًّا متقدمًا متطورًا، وشيدت له القناطر الخيرية؛ لتنظيم عملية الري في مصر، وهو الأمر الذي لم يكن حبًّا في شخصه، أو حبًّا في مصر، وإنما كان لتنفيذ المخطط الصليبي الذي فشلت الحملة الفرنسية فيه لخروجها المفاجئ.

ونجح محمد علي وكان له الدور الأكبر في القضاء على الدولة العثمانية، وإضعافها وإهدار طاقاتها، وإسقاط هيبتها والتَعدي على حرماتها، خدمةً لأعداء الاسلام الذين تقارب وتحالف معهم، وسار في فلكهم الفكري والحضاري وانسلخ تدريجيًا عن الانتماء العقيديّ والأخلاقي ومهد للغزو الفكري المنظم، وأرسل المبتعثين من الشبان إلى أوروبا ليكونوا نواة وبداية لرحلة التغريب والانسلاخ.

أما سياسته في الرعية، وأسلوبه في حكم المصريين، فهو ما يجب أن نسلط الضوء عليه، ونفضحه فيه ونفضح أولئك الذين حاولوا أن يطمسوا هذه الصفحات، فلم يشيروا إليها أو يلفتوا إليها مجرد التفات، حتى تظهر صورته الحقيقية كحاكم متسلط، وطاغية جبار سام الناس سوء العذاب، وتجرع المصريون في عهده ذل العيش، حتى كان عهده من أتعس العهود التي مرت بها مصر وأهلها، وهي الأوصاف والحوادث التي ذكرها المؤرخون وتغافلها تاريخنا وإعلامنا الذي يتحكم فيه ذوو الأغراض التغريبية التحللية .

لقد وصفوا حكمه بأنه حكم قهر وظلم واستعباد للمصريين، حيث صادر أراضي الفلاحين، وفرض عليهم السخرة، أو دفع ضريبة بديلة، وحرم عليهم أن يأكلوا من كد أيديهم، وأبطل التجارة، وزاد في أسعار المعاش أضعافًا مضاعفة، وفرض الضرائب القاسية التي لا يطيقها الناس، وجعل كل نشاط اقتصادي يؤول إليه، حتى قال الجبرتي في أسباب سياسته التعسفية: إنها ترجع إلى حسده وشرهه وطمعه وتطلعه لما في أيدي الناس وأرزاقهم.

ونتيجة لهذا الجور، كَرِهه الناس ونقموا عليه وعلى ولاته وعماله، وهربوا من قراهم وأرضيهم فرارًا من الظلم والقهر، كما فروا من التجنيد في صفوف جيشه، وقام فأجبر الأهالي ببناء المدن وتعميرها بالمهانة والسخرة، حتى وصفها الجبرتي بقوله: "اجتمع على الناس عشرة من الرذائل وهي؛

السخرة، والعونة، وأجرة الفعلية، والذل، والمهانة، وتقطيع الثياب، ودفع الدراهم، وشماتة الاعداء، وتعطيل معاشهم، وأجرة الحمام".

كما أوقف مناهج التعليم القائمة على الدين، تنفيذًا لسياسة نابليون، وهو ما أشار أليه المؤرخ الإنكليزي أرنولد توينبي بقوله: "كان محمد علي دكتاتورًا، أمكنه تحويل الآراء النابليونية إلى حقائق فعالة في مصر".

ولم يكن هناك شيء يفصل هذا الطاغية عن غيره من أشقياء المماليك، فقد صادر الأموال وسلب المحاصيل وضاعف الضرائب، ولما ضج الناس جاءه العلماء وذكروه بالعهد الذي اتخذوه عليه يوم تنصيبهم إياه، فأسرها في نفسه حتى إذا ما رجعوا إلى بيوتهم أمر باعتقالهم، ونفى عمر مكرم إلى دمياط، وهو الذي كان من قبلها يناديه: يا والدي، وهكذا استطاع أن يقضي على كل خصومه من المماليك والعلماء والشعب، الذين يُمكنهم أن يعيقوا طموحه الجارف وملكه المكين، الذي بناه على آلام المعذبين المساكين، ولكنه في ظل هذا الانتصار لم تكن لديه القدرة أن ينتصر على الكلمة الحرة الأبية، التي سجلت ظلمه وجوره وأيامه السوداء في حكم مصر حين قيض الله له الشيخ عبد الرحمن الجبرتي، الذي كتب عن جبروته وطغيانه في صحف يقرأها الناس، ويتداولونها فيما بينهم.

كتب الشيخ " محمد عبده " في المنار في ٧ يونيه ١٩٠٢ تحت عنوان آثار محمد علي في مصر :

"لغط الناس هذه الأيام في محمد علي، وما له من الآثار في مصر والأفضال على أهلها، وأكثرت الجرائد من الخوض في ذلك، والله أعلم ماذا بعث المادح على الإطراء، وماذا حمَل القادح على الهجاء، غير أنه لم يبحث باحث في حالة مصر، التي وجدها عليها محمد علي، وما كانت تصير البلاد إليه لو بقيت، وما نشأ من محوها واستبدال غيرها على يد محمد علي، أقول الآن شيئًا في ذلك ينتفع به من عساه أن ينتفع، ويندفع به من الوهم ما ربما يندفع.

ما الذي صنعه محمد علي؟ لم يستطع أن يُحيي ولكن استطاع أن يُميت، كان معظم قوة الجيش معه، وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة، فأخذ يستعين بالجيش وبمن يستمليه من الأحزاب علة إعدام كل رأس من خصومه، ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولا، وأعانه على الخصم الزائل، فيمحقه وهكذا حتى إذا سحقت الأحزاب القوية، وجّه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة، فلم يَدَع فيها رأسا يستقر فيه ضمير "أنا"، واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلا لجمع السلاح من الأهلين، وتكرر ذلك منه مرارا حتى فسد بأس الأهلين، وزالت ملكة الشجاعة فيهم، وأجهز على

ما بقي في البلاد من حياة في أنفس بعض أفرادها، فلم يبق في البلاد رأس يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه، أو نفاه مع بقية بلده إلى السودان فهلك فيه.

أخذ يرفع الأسافل ويُعليهم في البلاد والقرى، كأنه يَحِن لشَبَه فيه ورثه عن أصله الكريم، حتى انحط الكرام وساد اللئام، ولم يبق في البلاد إلا آلات له يستعملها في جباية الأموال وجمع العساكر بأية طريقة، فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأي وعزيمة واستقلال نفس، ليُصَيِّر البلاد المصرية جميعها إقطاعًا واحدًا له ولأولاده بعد إقطاعات كانت لأمراء عدة.

ماذا صنع بعد ذلك؟ اشرأبت نفسه لأن يكون ملكًا غير تابع للسلطان العثماني، فجعل من العُدة لذلك أن يستعين بالأجانب من الأوربيين فأوسع لهم في المجاملة وزاد لهم في الامتياز، حتى صار كل صعلوك منهم لا يملك قوت يومه ملكا من الملوك في بلادنا، يفعل ما يشاء ولا يُسأل عما يفعل، وصغرت نفوس الأهالي بين أيدي الأجانب بقوة الحاكم، وتمتع الأجنبي بحقوق الوطني التي حُرم منها وانقلب الوطني غريبًا في داره غير مطمئن في قراره، فاجتمع على سكان البلاد المصرية ذُلان، ذُل ضربته الحكومة الاستبدادية المطلقة، وذُل سامهم الأجنبي إياه ليصل إلى ما يريده منهم، غير واقف عند حد أو مردود إلى شريعة.

لا يستحي بعض الأحداث أن يقول: إن محمد علي جعل من جدران سلطانه بناء من الدين، أي دين كان دعامة للسلطان محمد علي؟ دين الضرائب! دين الكرباج! دين من لا دين له، إلا ما يهواه ويريده.. وإلا فليقل لنا أحد من الناس أي عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة الدين الإسلامي الجليل؟

لا أظن أن أحدا يرتاب – بعد عرض تاريخ محمد علي – على بصيرته أن هذا الرجل كان تاجرًا زارعًا وجنديًا باسلا ومستبدًا ماهرًا، ولكنه كان لمصر قاهرا ولحياتها الحقيقية مُعدِما، وكل ما نراه الآن فيها مما يسمى حياة، فهو من أثر غيره ـ متّعنا الله بخيره وحمانا من شرّه والسلام"

* * * *

تشويه الأبطال

يحاول المزيفون والمزورون اليوم أن يشوهوا صورة بطل المسلمين الخالد صلاح الدين الأيوبي، وإظهاره بمظهر السفاح الشرير، المضطهد للأبرياء والمزهق للأرواح، حتى يتموا أدوارهم المنوطة بهم من قبل الأعداء المتربصين، لتشويه الحضارة الإسلامية ورموزها الأبطال .

فمن هؤلاء الذين اضطهدهم صلاح الدين وأعمل فيهم بطشه؟

نحن في حاجة إلى قراءة ومعرفة وتأمل ودراسة، حتى لا نصدق كل ما يلقى علينا من خرافات وأوهام وأكاذيب، تضر تاريخنا وسيرة أبطالنا، فمع بداية الدولة الأيوبية بقيادة صلاح الدين انتهى الحكم الفاطمي في مصر، التي عادت لأحضان الخلافة العباسية ومراتع أهل السنة، وقطعت الخطب على المنابر من الدعاء للفاطمي إلى الدعاء باسم الخليفة العباسي المستضيء بالله، وعامل صلاح الدين أهل بيت الخلافة الفاطمية معاملة إنسانية راقية، وأسكنهم دورًا وأكرمهم وجعل عليهم الخدم والحراس، وكان يتفقدهم بنفسه، حتى لا يقصر الخدام في خدمتهم ورعي شؤونهم.

وهو فعل نبيل وخلق كريم من رجل شهم، وقائد يتحلى بأخلاق الفرسان، ومع انهيار الدولة وزوال جذوتها وانقضاء عهدها، كانت هناك

فلول تعمل في الخفاء، من اللحظة الأولى لسقوط الدولة، تتآمر في السر، لتثير الفتن وتحرض على الاضطراب، وتصدر الدسائس وتنفخ في الفوضى، حتى تتخبط الدولة الجديدة، وتتعثر في حكمها وتجد ما يضعف وجودها وقيامها، لكن صلاح الدين كان واعيًا وفطنا جدًا لما يدور حوله، وما يدبره في الخفاء هؤلاء المارقون، فكان يسلط عليهم عيون مخابراته، ويسد عليهم كل السبل التي تحقق غايتهم، حتى تم ضبطهم وهم يتفقون مع أعداء الدولة من السودان والفرنج، وكان فيهم قيادات كبيرة من رجالات الدولة الفاطمية الذين بكوا ذهابها ورثوا أيامها.

لقد كان صلاح الدين عنيفًا شديدًا على هذه الجراثيم التي تحاول أن تأكل عضد دولته، وتنخر في جسدها الناشئ، وكانت عقوبته عليهم قاسية، عقوبة من يفسد في الأرض، ويعمل على ضياع الدولة، وإشاعة الفوضى، وذهاب الأمن، فصلبوا بين القصرين، على مشهد من أهل القاهرة، لتكون رسالة لكل من تسول له نفسه أن يعبث مع الدولة الجديدة، فيما يهدد أركانها وعمادها وسلطة حكمها، كما أدرك منها كل ناظر أن الدولة الجديدة دولة لا تعرف النوم، ولا تغفل عمن يكيد لها، وأن عيونها نافذة ساهرة ترى كل شيء وتبصر في الليل والنهار معا.

كان هذا مؤخرًا، ومن قبل سبقته محاولة فيلم الناصر صلاح الدين ليوسف شاهين، لتمييع الصورة والتوجه والروح الإسلامية في جهاد صلاح الدين، فيلم خطير أحدث ضجة كبرى، كان لها صداها في تشويه الصورة القائمة لصلاح الدين في الأذهان، فبعدت بهم الصورة المصطنعة عن حقيقة الرجل، عبر بعض المفاهيم والمصطلحات التي تم تغييرها وتدليسها لتخدم السياسة القائمة في ذلك الوقت، وهي مفاهيم مغايرة لما كان عليه عصر صلاح الدين وجيله وشخصيته، رصدها بعض المتابعين، وننقلها هنا للتبصرة بمدى الافتراء العبثي بالعقول وحجمه:

الفيلم: تسمية القدس بأورشاليم.

الحقيقة: الاسم هو القدس ولم يتغير .

الفيلم: عيسى العوام عربي مسيحي.

الحقيقة: عيسى العوام قائد مسلم .

الفيلم: والي عكا خائن.

الحقيقة: والي عكا هو الأمير بهاء الدين قراقوش، من أخلص قادة السلطان صلاح الدين، وليس بخائن.

الفيلم: وشاية حقيرة سبب قتل ريتشارد لسبعين أسيرا عربيا، وأوقف ريتشارد القتل، واعتذر عندما عرف الحقيقة .

الحقيقة: عندما دخل الصليبين عكا خان ريتشارد الصلح، وقتل ٣٠٠٠ أسير، وألقاهم من فوق أسوار عكا.

الفيلم: صلاح الدين يقنع ريتشارد بعبثية الحرب؛ فيعود ريتشارد لبلاده بعد أن يحج لأورشليم رغم قدرته على استكمال الحرب!

الحقيقة: انسحب ريتشارد مضطرًا، ورفض دخول القدس حاجًا لا فاتحًا، ولم يكن أخوه جون ليرسل مددًا، لأنه كان يريد الاستيلاء على عرش إنكلترا، واستولي عليه فعليًا، وهام ريتشارد طريدًا في أحياء أوربا، وعلى أعتاب ملوكها.

الفيلم: ريتشارد قلب الأسد ملك صالح يحافظ على وعوده وكلمته.

الحقيقة: ريتشارد كان سفاحًا قاتلا، وليس بقائد شريف.

الفيلم: صلاح الدين كان علمانيا شعاره الدين لله والوطن للجميع .

الحقيقة: صلاح الدين كان نتيجة حركة بعث إسلامية، وكان يتحرك تحت راية الجهاد في سبيل الله.

الفيلم: صلاح الدين يُلقب بسلطان العرب حتى يوائم التوجه القومي الناصري في ذلك الوقت وهذا باطل.

الحقيقة: صلاح الدين كان سلطانًا للمسلمين.

الفيلم: صلاح الدين يبارز رينو، ويتمكن أخيرًا من قتله.

الحقيقة: أن صلاح الدين أمر بقتل رينو لسبه رسولنا صلى الله عليه وسلم، وليس من الطبيعي أن يعرض السلطان نفسه للخطر أو يقاتل أسيرًا بعد أسره.

في الفيلم: احتل الصليبيون عكا في يوم واحد، حيث قال ريتشارد وقتها: يجب الاستيلاء على عكا قبل الغروب.

الحقيقة: أن عكا ظلت عامين تحت الحصار حتى استطاع النصارى احتلالها.

الفيلم: استولى الصليبيون على عسقلان التي ضحى بها الناصر صلاح الدين حفاظا على جيشه.

الحقيقة: أن الناصر هدم عسقلان حتى لا يستخدمها النصارى في الهجوم على القدس.

الفيلم: صلاح الدين يذهب بنفسه عارضًا السلام

الحقيقة: أن الناصر لم يلتق ريتشارد أبدًا، ولا حتى في صلح الرملة الشهير .

هذه بعض الامثلة من الفيلم الأكذوبة الذي يذاع على الدوام ليركز في أذهاننا وأذهان أبنائنا مفاهيم علمانية وقومية، تبتعد بهم عن هويتهم الإسلامية، ولابد من العود إلى تاريخنا العظيم وأخذه من مصادره الموثوقة، وليس ممن يزورونه ويعبثون بحقائقه وأمجاده. الموضوع ليس مجرد فيلم وقصة، ولكن الأمر أخطر من هذا بكثير، حينما يكون القصد مسخ الهوية، وتزييف الوعي، وتضليل العقول، لتغيبها عن تاريخها وموطن عزها وسؤددها.

لقد عرض الفيلم احتلال الصليبين للأراضي الإسلامية بطريقة باهتة، وصور في أقصى ما صور أن معاملتهم كانت قاسية، تقوم على حرمان السكان والأهالي، وتضييق القوت عليهم وتهجيرهم، والحقيقة أن الصورة كانت أبشع وأفحش، ففي عام (١٠٩٩) كان الاستيلاء المفزع للصليبيين على بيت المقدس، لقد فعلوا في المسلمين أبشع ما عرف التاريخ من صور القسوة والوحشية، وفاقوا في حقدهم وقسوتهم ما حكته الأخبار عن المغول السفاحين.

إن دخول الصليبيين لبيت المقدس وافتعالهم ما فعلوه يظل وصمة عار في جبين المسيحيين، ما قام الدهر وانتصب الزمان.

وكم يكون وقحًا أن يقوم أحدهم باتهام الإسلام والمسلمين بالإرهاب، وبين يديه ومعلق في تاريخه، مثل هذا الحدث الجلل، الذي تقشعر منه الجلود والأبدان، وتخر القلوب لهوله خشية ووجلا، حيث تشير المراجع المسيحية قبل العربية، أنه حينما استولى الصليبيون على المدينة، أقاموا بها مذبحة رهيبة، واقتحموا المسجد الأقصى، وقتلوا في ساحته المباركة (٧٠.٠٠٠) مسلم وفيهم العلماء والدعاة والزهاد والعباد، ومن هجروا أوطانهم وجاوروا الحرم الشريف.

لقد أثارت المجازر الرهيبة وقتها رد فعل في العالم الاسلامي الذي أصابه الضعف والهوان والتراجع، فلم يستطع أحد أن يغيث هؤلاء، أو ينقذ الأرض من قبضة الغاصبين .

تروي لنا الآثار حجم الأسى والحزن الذي أصاب المسلمين لهول ما عرفوا من حال إخوانهم، فمما يرويه الإمام ابن الجوزي في مرآة الزمان :

"أن قاضي دمشق ومعه بعض المستنفرين، أسرعوا إلى بغداد ليستشيروا الخليفة العباسي ويدفعوه دفعًا إلى جهاد أولئك الصليبيين

المعتدين، وهناك في بغداد قطعوا شعورهم واستغاثوا وبكوا، وقام القاضي في الديوان وأورد كلاما أبكى الحاضرين"

فلماذا لم يركز الفيلم على هذه الفجائع، ويظهر وحشية التاريخ الصليبي في عدوانه على أراضينا وهدره لأرواح المسلمين؟!

* * * *

لا.. لن يعود

الديمقراطية في بعض البلدان لا تُنصف أصحابها، والحاكم الذي تأتي به الديمقراطية قدرًا في مثل هذه البلدان، يجب أن يعلم أن ظهره عار لا سِناد له، لأنها تختلف عن الدول المتقدمة التي يندفع مواطنوها في الشوارع، يضحون بأنفسهم في سبيل اختيارهم وإرادتهم، ومن ثم لن يعود ذلك الحاكم الذي أتى به الشعب، لو انتزعت منه السلطة لسبب من الأسباب، أي أن عهده ضاع وانتهى، ومن يحاول الهروب من هذه الحقيقة، فهو من الضاحكين على أنفسهم، والخادعين لعقولهم، وربما يكون الحاكم المخلوع قريبًا من الله وأنصاره من أهل الله، لكن الحكم والرغبة فيه والحرص عليه، لا تكون بالتمني والعاطفة والتدين، والعيش على أمل مفقود ميؤوس منه، وهناك من أنبياء قُتلوا وأُزهقت أرواحهم، ومن ثم لا تحدث فيها المعجزات، وإن حدثت فهي أمر شاذ ونادر، لكن نبقى دائمًا، أو يجب أن نبقى دائما ونحن نرى المنطق والعقل يحكمان المعادلة.

لابد من التكيف مع الواقع الجديد والعمل في اتجاه آخر.

في الأرجنتين مثلا كان الحال مختلفا عن بلادنا، فإن الديمقراطية تظل سلاحًا يمكن أن يعود بالمخلوعين إلى سدة الحكم مرة أخرى بعد التمرد عليهم، فقد كان (خوان بيرون) حكم البلاد لفترتين من عام ١٩٤٦ وحتى

عام ١٩٥٥م، قبل أن يطاح به في انقلاب عسكري، ورغم فِراره خارج البلاد، إلا أنه نجح أن يبقي على شعبيته بين الجماهير، حتى جاء عام ١٩٧٣ ليعود للحكم مرة أخرى بانتخابات رئاسية.

ولو تتبعنا سيرة الحكام المخلوعين على مر التاريخ، لوجدنا أن الذين عادوا للحكم منهم، إما عسكريين أو قبليين أو وارثي ملك أو أباطرة وسلاطين .

فمن أجل النفط أطاحت أمريكا بحكومة الدكتور مصدق المنتخبة ديمقراطيًا في إيران، وأرجعت الشاه إلى حكم البلاد مرة أخرى، عن طريق جنرالات الجيش الذين نفذوا انقلابهم عام ١٩٥٣م، وفي تاريخ مصر القديم أطيح بالسلطان الناصر قلاوون ثلاث مرات ثم عاد مرة أخرى، ويعد من أطول الناس عمرا في حكم المحروسة، حيث تربع على عرش فرعون مدة أربعين سنة، وكان في كل مرة يطاح به ويسجن، ثم يعود ليتولى الحكم مجددًا بعد الانتقام ممن تخلوا عنه.

وكذلك ابنه السلطان حسن أطيح به مرتين، ثم يعود كذلك لينتقم ويقتل ويسجن كل من تآمروا عليه، إلى أن تم حسم الأمر من المماليك الذين قرروا قتله مباشرة دون سجنه، حتى لا يعود بعد السجن للحكم والقتل والعقاب والانتقام.

وكذلك كان نابليون من أبرز قادة التاريخ الذين أطيح بهم، ثم عادوا للحكم مرة أخرى بعد السجن والنفي.

ومن الغرائب والمدهشات أن هناك شخصًا سُلب منه ملكه، ولكنه استطاع العودة والحفاظ على نكهة هذا الملك، ولكن بشكل آخر وصورة مختلفة، لقد كان (غليوم الثاني) إمبراطور ألمانيا، والمتسبب في الحرب العالمية الأولى، هو نهاية العهد الملكي في ألمانيا، وإليه يرجع سبب هذه الحرب، ويتحمل في رقبته وزر هذه الضحايا الكثيرة التي حصدتها نيرانها.

وفي عام ١٩١٨م يتنازل عن العرش، وكان المنتظر أن يحاكم أمام محكمة دولية كمجرم حرب، وفي الوقت الذي وجهت إليه التهم من الحلفاء، قاموا بتبرئة الشعب الألماني، لأن النظام الإمبراطوري كان يقضي بوجود الحاكم المطلق الذي لا معقب لحكمه.

وصدر عليه حكم النفي إلى بولندا بعد تنازله عن العرش، وكان (غليوم الثاني) سليل أسرة عريقة من المجد والملك، وكان يرى نفسه يميل إلى النظام الملكي المقدس، فأجداده فريدريك وليم وفريدريك الثاني وفريدريك الكبير، وفي عام ١٩١٨م، تصبح ألمانيا جمهورية وينتهي بها النظام الملكي، ويصير غليوم رجلا عاديًا بلا ملك ولا إمبراطورية ولا صلاحيات ولا أمر ولا نهي ولا صولجان ولا سلطان.

وأمام هذا التجرد والضياع، لم يستطع أن يصدق نفسه، ولم يستطع أن يتخلى عن هذه المراسم والطقوس التي عاش فيها، فأصيب بداء الوهم وظن نفسه أنه مازال إمبراطورًا وملكًا.

وكان يأمر خدمه أن يقيموا له هذه المراسم الملكية، ويضع التاج على رأسه، ولا يزوره زائر في منفاه، إلا بعد أن يأخذ الإذن، وإذا دعا أحدا إليه، كان لابد أن تكون دعوة مكتوبة ومختومة وموقع عليها من رئيس التشريفات، وكان خدمه يلبسون ثيابًا خاصة مذهبة، وينحنون للضيوف في احترام، ويضربون كواعب الأقدام على نحو ما كانوا يصنعون في قصر بوتسدام.

ولابد لزائر الإمبراطور أن يمر على مكتب رئيس القصر، لكي يعرف القواعد التقليدية للمثول بين يدي جلالته، وظل بضع سنين بعد تنازله عن العرش، يجلس على مائدة العشاء بملابس القائد العام، ظل يعيش هكذا، ولم يقتنع أن عرشه قد هوى، ولم يقتنع بأنه صار الإمبراطور سابقًا، ولم يتخل عن أكثر هذه العادات إلا بعد أن أدرك وأيقن أن عرشه زال وانتهى، وأنه لابد أن ينتبه للحقيقة المرة.

وفر من منفاه إلى هولندا، وقررت الحكومة الهولندية أن تحتجز الإمبراطور اللاجئ في قصر مريح في مدينة دورن، وظل هناك في عزلته، إلا

أنه لم يستسلم لآهاته وأناته، ولم يقف مهزومًا أمام أحزانه، فلجأ للقراءة وكتابة المذكرات وتأليف بعض الكتب التي كان منها كتاب آبائي وسلسلة يومياته.

ولم تفته بعض الهوايات الجميلة، كالموسيقى وفلاحة البساتين، وتربية الأزهار التي كانت تظفر في المعارض الهولندية العالمية بأسنى الجوائز، كما كان يهوى الحفر على الخشب، وكان يقضي في هذا أكثر ساعات الصباح، وظل هكذا يعالج نفسه وروحه بهذه الهوايات المتعددة، ولكن هناك أمنيات كانت تجيش بصدره، وأولها أن يسمح له بالعودة إلى وطنه، أو على الأقل يؤذن بدفنه فيه حين ينتهي أجله.

* * * *

خساسة السياسة

من أهم سمات السياسة أنها خسيسة لا تحفظ معروفًا، ولا تذكر إحسانًا، نعم إنها السياسة التي تعرفها الدنيا كلها حين تقوم على الغدر والخيانة والجشع والسيطرة والتملك والصراع والأثرة والأنانية.

يقدر لكثير من الحركات والدعوات والدول والزعامات، أن تقوم على أكتاف أناس يتفانون في خدمتها وترسيخ دعائمها وتثبيت أركانها، يبذلون ذلك بكل جهد ودأب وتعب، ويهبون لهذا الواجب كل راحتهم ووقتهم وعطاءهم، ولا يعلم المساكين أنهم أول ضحايا هذه الدعوة التي يدعون لها، والدولة التي ينشدون قيامها، حين تكون عاقبة جهودهم مكانة علية، وصيتًا وفيرًا، وحظوة بالغة، وسمعة آسرة، وهو ما لا تقبله الزعامة التي تتربع على عرش الحركة أو الدولة، فتدفعها الغيرة والحسد والأثرة، إلى الغدر بالأولياء الأوفياء، حيث لا يتحملون وجود شريك في الإعجاب والزعامة وحب الجماهير وهتاف الملايين، وذكر اسم يضاهي أو يعلو على اسم الحاكم أو الزعيم.

قد يصبر الحاكم على كل شيء إلا هذا الأمر الذي يراه تهديدا لسلطانه ومنذرًا بزوال عرشه.

كان هناك في مصر رئيس وزراء في بعض عهودها، قد نجح نجاحًا طيبًا في اتخاذ إجراءات اقتصادية إيجابية ملموسة، فلما شغل ذكره ألسنة الناس، فوجئ الجميع بقرار عزله، وتعجبوا من تنحيته، فلم يكن الرجل إلا مجتهدًا ناجحًا، يسير بخطوات حثيثة مأمولة، وغاب السر الكبير عن الأذهان، بأن الرئيس لا يقبل أن يعلو ذكر أحد فوق ذكره، ولا يرضى أن يهتف الناس لغيره، فعزل الرجل حتى ولو على حساب الشعب ومصلحته ومستقبل الوطن وقوت الأمة.

إن التاريخ يغص بكثير من هذه النماذج التي تنتهج هذه الخسة، وتجعل المرء يتعجب ويتقلب في دثار الدهشة مما يرى ويقرأ.

إن الخليفة أبا جعفر المنصور قتل كل من حوله حفاظًا على عرشه الذي توهم أن الجميع يطمع فيه، فكان يأخذ بالشبهة كل من شم منه رائحة الطمع، أو رأى له أنصارًا أو شك منه بقدرة على التمرد والخروج.

وبعد أن قام القائد جوهر الصقلي بتأسيس القاهرة، اختلف مع المعز لدين الله، ونُحّي من مناصبه وظل مبعداً حتى قرّبه الخليفة التالي، العزيز بالله (٩٧٥ - ٩٩٦) والذي لعب جوهر دورًا مهمًا في وصوله لسدة الخلافة، فكافأه العزيز بلقب نائب الخليفة حتى عام ٩٧٩هـ ثم جُرد من جميع مناصبه وألقابه بعد هزيمته قرب دمشق في حملة لضم الشام.

وكان ابنه حسين ذكيًا جدًا وفطنا إلى هذه الخصلة من غيرة الحكام، فحينما عينه الحاكم بأمر الله الفاطمي وزيرًا له، وخلع عليه كثيرًا من ألقاب العظمة، فلم يأخذه الغرور والتيه فينسيه غيرة الحاكم.

يقول المقريزي: "ومنع القائد الناس أن يلقوه في الطريق أو يركبوا إليه في داره، وأنّ من كان له حاجة فليبلغه إياها بالقصر، ومنع الناس من مخاطبته في الرقاع بسيدنا، وأمر ألا يخاطب ولا يكاتب إلا بالقائد فقط، وتشدّد في ذلك لخوفه من غيرة الحاكم، حتّى أنّه رأى جماعة من القوّاد الأتراك قيامًا على الطريق ينتظرونه، فأمسك عنان فرسه ووقف وقال لهم: كلّنا عبيد مولانا صلوات الله عليه ومماليكه، ولست والله أبرح من موضعي أو تنصرفوا عنّي ولا يلقاني أحد إلا في القصر، فانصرفوا وأقام بعد ذلك خادمًا من الصقالبة الطرّادين على الطريق بالنوبة لمنع الناس المجيء إلى داره ومن لقائه إلا في القصر، وأمر أبا الفتوح مسعود الصقلبي صاحب الستر، أن يوصل الناس بأسرهم إلى الحاكم وألا يمنع أحدًا عنه".

ولا يعرف التاريخ القديم والحديث حاكما خسيسًا مثل محمد علي باشا حينما أوقع بالسيد عمر مكرم ونفاه إلى دمياط، وهو الذي كان السبب المباشر في تنصيبه واليًا على مصر، وبعض الناس يسميها ذكاء وحنكة، ولكنها في الحقيقة خسة ونذالة، وفعل قبيح لا يكون إلا من الرجل المستبد الدنيء،

الذي لا يرعى إلا نفسه، ولا ينظر إلا لسلطانه ومصالحه، ولا يقبل أن يكون هناك اسم آخر ينازعه الزعامة، أو يملك قلوب الناس دونه.

ومن هنا يلجأ كثير من رجال الحاشية، إلى التسبيح الدائم بحمد الملك أو السلطان، والنفاق له حتى يخمدوا فيه تلك الظنون، فتسترسل في نوم طويل لا تستيقظ أبدًا، لأنها لو استيقظت فإنها لن تبقي عليهم، حتى ولو كانوا من المجتهدين المنجزين، فإنهم بين الحين والحين لا يزالون يرددون أن إنجازهم وجهدهم وبلاءهم، ما كان ليتحقق لولا عطاء السلطان ورعاية الملك، حتى يحفظوا مكانتهم ومناصبهم، وحتى لا يجرؤ أحد من الرعية أن يهتف باسمهم فوق اسم الملك.

لا تعرف الدنيا مثل دولة الراشدين مثالا في السياسة السامقة السامية، التي عملت بالوفاء والصدق والحق والنبل والخلق القويم، وقد أعطى المسلمون في تاريخهم منصب الخلافة كثيرا من التقديس والتعظيم، ولعله كان السبب لنجاة هذا المنصب الكبير وأصحابه، من الوقوع في كثير من حالات الغدر والخسة، فمهما علا ذكر القائد وسما شرفه، فإنه لا يستطيع أبدًا أن يتعدى مقام الخليفة الذي له جُل التعظيم وأسمى آيات التبجيل، من الغدرات التاريخية المشهورة بالوزراء والمحاسيب .

بطش هارون الرشيد بخالد البرمكي وأولاده وهو الذي أيده وسانده حتى مال إليه العرش.

واغتيال المأمون لقائد جيشه طاهر بن الحسين الذي هزم له الأمين وقتله .

ونكبة عبد المؤمن بن علي مؤسس الموحدين بوزيره و كاتبه جعفر.

وعزل عبد الرحمن الداخل لخادمه ووزيره و قائد جيشه بدر.

* * * *

الله على مصر الإسلامية

وسط ما يلقاه المسلمون اليوم شرقًا وغربًا، من تطهير عرقي وتصفيات جسدية ووحشية لا نظير لها من شعوب همجية بربرية، تدعي بعضها الرقي والتحضر، بينما هي في حقيقتها لا تؤمن بالإنسانية والضمير والمواطنة، يندهش المرء كثيرًا من هذا التاريخ العجيب الغريب، والذي كانت غرابته في رقيه وسماحته وعظمته ومخالفته لما ألفه الناس من سنن الانتقام والثأر والتربض، وإرواء النفس من فورانها وحمأتها وغيظها.

ماذا بك لو مكنك الله ممن كان يسبك ويهينك، يظلمك ويقتلك، يجلدك ويعتدي على مالك وعرضك، ويهدم بيتك ويقطع عيشك ويسرقك قوتك؟

لا شك أنك وقتها تتحول إلى جزار شرس، لا هم له إلا السلخ والذبح والتقطيع والبتر، بلا شفقة أو رحمة، مستجيبًا لنداء الانتقام الذي تأكل ناره كبدك، وتلهب مشاعرك جراء ما تعرضت له من ظلم وكبت وخنق.

لكن ما حدث في مصر الإسلامية، كان على خلاف ذلك، وكان درسًا إنسانيًا عاليًا لابد أن تتوقف عنده الدنيا، وتتعلمه الأجيال، ويروى على آذان

الناشئة في المدارس والجامعات، ليعلموا أن هذه الأمة، لم تبلغ العظمة وترتقي مراتب السمو الإنساني والنفسي، إلا حينما تزينت بزي الإسلام، وتجملت بقيمه وتعاليمه.

حينما احتل الفرنسيون مصر، فكر نابليون الداهية، أن يستميل ويجند أبناء الأقليات، فأعلن وهو في طريقه إلى غزو مصر، عن نيته تجنيد عشرين ألفا من أبناء الأقليات في الشرق، للاستعانة بهم كقبضة ضاربة وقفاز محلي ومواطئ أقدام لحملته الاستعمارية وحلمه الإمبراطوري، فأغرى نفرًا من أراذل النصارى بالالتحاق بجيشه في حرب المصريين والتصدي لمقاومتهم، وتزعمهم الشيطان الذي يسمى المعلم يعقوب حنا، الذي وصفه الجبرتي باللعين، وعهد إليه كليبر، أن يفعل بالمسلمين ما يشاء، حتى تطاولت النصارى على المسلمين بالسب والضرب، ونالوا منهم أغراضهم، وأظهروا حقدهم، ولم يُبقوا للصلح مكانًا وصرحوا بانقضاء ملة الموحدين.

كما شارك يعقوب اللعين جيش فرنسا بقيادة ديزيه، في مداهمة مدن الصعيد وإحراق قراها وهدمها، وقتل الأحرار واغتصاب الحرائر.

وبعد انقشاع الغمة وهزيمة الفرنسيين، عزموا الرحيل، وبالطبع لم يكن هناك مقام ليعقوب اللعين وفيلقه من ملاعين القبط، الذين أهانوا إخوانهم في الوطن، وتسلطوا عليهم، لكن الدهشة الكبيرة أن مصر

الإسلامية، التزمت العفو والصح والتسامح، وتسامحت على كل جراحها وآلامها وطوت صفحة الجحود والخيانة، وجاهدت كما يقول أستاذنا وشيخنا الدكتور محمد عمارة إلى: "تضميد جراح الوحدة الوطنية، فعممت النداءات للشعب والأهالي في مختلف الأقاليم والمدن والقرى، لنسيان هذا الحدث، والحذر من الانتقام، ومعاملة الأقباط بالسماحة والحسنى، بل والتماس الأعذار لهذا الذي صنعه هذا الفريق من أراذل القبط"

بل بلغ المصريون ذروة التسامح المدهش، حينما توجهوا إلى المعلم يعقوب نفسه إبان رحيل الفرنسيين، يعرضون عليه البقاء في مصر، والتجاوز عما اقترفت يداه أيام الاحتلال، وهكذا المصريون وانطلاقًا من قيم دينهم، رفعوا لواء العفو، ولم ينصبوا المشانق للخونة الجاحدين الذين شنقوا وحرقوا وأغرقوا العلماء والقادة والمواطنين والمواطنات .

يقول الجبرتي: " لقد نودي بألا يتعرض أحد بالأذية لنصراني ولا يهودي، سواء أكان قبطيا أو روميًا أو شاميًا، فإنهم من رعايا السلطان، والماضي لا يُعاد، وكتبت فرامانات وأرسلت إلى بلاد الشرقية والمنوفية والغربية مضمونها؛ الكف عن أذية النصارى واليهود وأهل الذمة، وعدم التعرض لهم، وفي الفرمانات آيات قرآنية وأحاديث نبوية، والاعتذار عنهم بأن الحامل لهم على تداخلهم مع الفرنساوية، هو صيانة أعراضهم وأموالهم".

حينما نتحدث دائما عن العفو والتسامح، نذكر موقف نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم في عفوه عن مشركي قريش، ولعل هذا الموقف المدهش، يأتي في الترتيب الثاني بعد موقف النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه، وإن أي كتاب يصدر، أو مقال يكتب، أو محاضرة تلقى عن العفو، ولا تتناول عفو المصريين عن أشقياء القبط، فإنها تكون عملا ناقصًا غير مكتمل، لأن ما حدث كان شيئًا مبهرا في دنيا الإنسانية، لم يقبل روحها ووقوعها إلا الإسلام وحده، حينما تهتدي بهديه الشعوب والأمم.

تبقى الإشارة إلى أن العقاب لم يطل المعتدين، لأن يعقوب وصبيانه الذين بلغوا ألفي شقي فروا مع جيش نابليون، وإنما كانت الدعوة إلى العفو، حتى لا يطال العقاب والانتقام الأسوياء من الأقباط الذين لم يصدر منهم أي عدوان، والعقاب أحيانًا يكون ضرورة حتى لا يستمرئ المجرم جرمه ويواصل عدوانه معتمدًا على عفو المجني عليه وسماحة المظلوم، لكن الفضل في هذا، يرجع لظروف العصر وأحوال الأمة وتقديرات الناس، وما يترتب عليها من مصالح ومفاسد.

لكنني أرى أن ما حدث للمصريين وما أنتجوه من إعلان فضيلة العفو، كان الأساس الذي بُنيت عليه الوحدة الوطنية، التي قامت شامخة في وجه المحتل الانجليزي الغاشم، دون أن تكون هناك خيانات تكرر مأساة

اللعين يعقوب، وتشق لحمة الوحدة الوطنية، وكانت مثالا خالدا لتآلف المصريين شعبًا واحدًا يجمع الأقباط والمسلمين.

كانت ملحمة العفو هي ميثاق الترابط والود والإخاء الذي دام باقيًا إلى اليوم في وجه العواصف والمؤامرات.

* * * *

بين المقريزي وفولتير

أخشى من هذا المقال أن ينعتني بعض من يجهلون سطوره وغايتي منه، أنني كاره لوطني، مبغض لترابه، والله يعلم أنني أحبه أكثر منهم، غير أني أعلن دومًا أن الحق أسمى في إيماني من روحي التي بين أضلعي، ونصرته أحب إلي من كل عزيز في الحياة.

هناك قوم حينما يتحدثون عن مصر والمصريين، يصوروننا وكأننا جنس آخر غير الناس، وأن بلادنا من كوكب آخر غير كوكب الأرض، وأننا شعب الله المختار، وأن كل مكرمة خصنا بها الله دون العالمين، فالإسلام عندنا، والعلم عندنا، والأصل عندنا، والكرم عندنا، والحضارة عندنا، وربما يظن ظان أن هذا الخطاب، يُنمي روح الوطنية في النفوس، ولكنه ابتداء يُنمى نداء العنصرية، ناهيك عن أنه تسبب في صدمة عنيفة لأجيال المصريين الناهضة، فحينما يبلغ الشاب ويستوي عوده، ويخرج للحياة، فيرى القحط والجوع والحاجة، وقلة ذات اليد، وضياع الفرص، وانعدام العمل، والكرامة المهانة، والمستقبل الضائع، والفقر المدقع، كل هذا يصيبه بخيبة أمل، حينما يرى الدنيا على غير ما أخبروه، وحينما يرى مصر خلاف ما حفظ ولقن.

لقد شرف الله تعالى مصر في كتابه الكريم حين ذكرها لأكثر من ٣٠ مرة وقيل ٢٤ مرة غير مباشرة، ومنها خمسة بتصريح مباشر كقوله تعالى:

"ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين" ولكن هل معنى ذلك أنها فعلا مباركة، وأنها عظيمة، وأنها شامخة، استنادا إلى هذه الدلائل؟!

لقد أُلِّفت في فضلها كثير من الكتب والأسفار التي حشيت بسطور الفخر وكلمات الشموخ، كما نسبت إليها كثير من الأكاذيب، فذمها قوم ومدحها آخرون.

ويصر نفر من الناس أن ينسبوا إلى نبينا الكريم ما قيل: " بأن جندها خير أجناد الأرض" ولقد طالعَنَا أهل الحديث بأنه قول باطل مكذوب موضوع على النبي صلى الله عليه وسلم، لكن أهل الهوى يصرون على روايته بين الحين والحين، تفاخرًا وتباهيًا بالزيف والزور.

ثم كانت الفضيحة الكبرى التي وصف بها المقريزي أهل مصر، وهو المؤرخ الكبير الذي دخل بلادها، وعاين أهلها، ودرس وتأمل طبيعتهم ثم قال في (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار):

"أهل مصر يغلب عليهم الدعة والجبن والقنوط والشح وقلة الصبر وسرعة الخوف والحسد والنميمة والكذب والسعي إلى السلطان وذم الناس بالجملة، كما يغلب عليهم الشر والدنية التي تكون من دناءة النفس والطبع.. ومن أجل توليد أرض مصر الجبن والشرور والدنية لم تسكنها الأُسد، حتى كلابها أقل جرأة من كلاب غيرها من الأمصار، وكذلك سائر ما فيها أضعف

من نظيره في البلدان الأخرى، ما خلا ما كان منها في طبعه ملايمة لهذا الحال كالحمار والأرنب"

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

"وَمَا يُخَافُ عَلَى الْمِصْرِيِّينَ إلَّا مِنْ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ كَمَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ"(١).

وقال المؤرخ الجبرتي في كتابه العجيب «عجائب الآثار»:

"ولكن (الإقليم المصري) ليس له بخت ولا سعد، وأهله تراهم مختلفين في الأجناس، متنافري القلوب، مُنحرفي الطباع"

لقد حيرتنا مصر وأرض مصر، ففي جوفها نامت أجساد الصفوة من أهل البيت الكرام، وزمرة من علماء الإسلام الشامخين العظام، كما ضمت كذلك أجساد الطغاة والفراعين، ولكن لماذا نصر دومًا على إبراز المحاسن والتغاضي عن المساوئ؟ التي لو تذكرناها لألزمتنا الموضوعية والحكم بوعي وإنصاف بعيدا عن الهوى والشطط.

كثيرا ما انتصرت وظفرت، وكثيرا ما انهزمت وانخذلت.

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية.

شأنها شأن كثير من الأمم والشعوب والأوطان، لا شيء جديد، ولا صورة ثابتة، ولا حكم دائم.

أشعر أن هناك تخبط كبير، وخلط مريع، يوم أن نحكم على مصر بالمصريين، وأن نحكم على المصريين بمصر، ولكن التفريق بين عنصري الأرض والبشر، أمر واجب وضرورة، حتى تكون رؤيتنا صادقة صائبة، فهي لا شك بلاد كريمة شريفة، لكن يبقى لقومها الذين يتبدلون عليها ويختلفون على عصورها شأن آخر، حين يتبدلون بين العزة والذلة، والنصر والهزيمة، والعدل والظلم، والذكاء والغباء، والوعي والغفلة، والمدح والذم، فليس معنى أن بلادهم كريمة شريفة أن يكونوا كرماء شرفاء، فرق كبير بين الأرض ومن عليها، بين الثرى ومن يطأه.

علينا أن نصارح أنفسنا، ونلتزم الصدق والحق، فنحن شعب كأي شعب، وناس كأي ناس، والزمان لا يدوم، والأيام دول، وأخلاق الشعوب تتغير وتتحول، فلمَ هذه الطنطنات والشعارات الفارغة التي غرقنا فيها، والتي كانت سببا في غرورنا وجهلنا، حتى انغلقنا على أنفسنا وصرنا في ذيل الأمم، بينما من حولنا كبر وتعاظم ونمى وتطور.؟!

كان صادمًا جدًا ما قرأته عن رأي فولتير في المصريين، حتى أنني لم أستوعب للآن أن يكون هذا رأيه وهذه قناعاته، نعم إنه فولتير الذي ينضم إلى قافلة كبيرة من المؤرخين والعلماء والمنظرين، ممن كان لهم رأيهم السلبي في المصريين، وهم علماء وعقول لا يُستهان بها ولا يتملكهم الهوى ليقولوا ما قالوا.

ويعد كتاب (رسالة في التسامح) من أبرز الكتب التي تعبر عن فلسفة فولتير، ومن يطالعه يندهش كثيراً من صراحته، ويعجب بجرأته في تناوله لكثير من الآراء الحساسة، في عصر كان يضج بالتعصب، كما يلمس القارئ سعة اطلاع الكاتب وعلمه بتواريخ الأمم والحضارات والديانات القديمة.

لكن الدهشة الكبرى أو النظرة المزعجة، خصوصا لو كان القارئ مصريًا، هو ما يجده في ثنايا الكتاب من رأي فولتير في المصريين، وهو نفس ما حدث لي حينما وجدت فولتير تحدث عن المبالغات التاريخية، وما سببته من توارث الحقد والتعصب، يأتي الفصل الذي يحمل عنوان (الشهداء) ليثبت أن الرومان الوثنيين لم يقتلوا من الشهداء المسيحيين المصريين العدد الذي تدّعيه المصادر الكنسية المصرية.

ويرى أيضًا أن الرومان قد سمحوا للمبشرين المصريين بممارسة عملهم في حرية، وهو العمل الذي وصفه فولتير بأنه يحض على الفتنة والعصيان.

ثم يدعم رأيه بقوله: "وإن يكن الشعب المصري قد عُرف على الدوام بأنه شعب مشاغب، محب للفتن، وجبان، شعب أقدم على تمزيق مواطن روماني إربًا إربًا لأنه قتل هرًا؛ شعب لا يستأهل سوى الاحتقار مهما قال عنه المعجبون بالأهرامات".

ثم يستطرد فيقول: "إن هذا المزعم بحاجةٍ لإثبات"، ثم يؤكد أنه منذ أن حل التاريخ محل الأسطورة والخرافة، فإنه يجب النظر إلى المصريين كشعب لا يضاهي جبنه سوى تطيره (إيمانه بالخزعبلات)، ويسوق فولتير الحجج القوية لهذا الرأي ومنها سهولة استيلاء قمبيز الفارسي على مصر، وهي ذات السهولة التي احتلها بها الإسكندر ويوليوس قيصر، ويضرب فولتير المثل من التاريخ القديم على جبن المصريين وتطيرهم بوقوعهم تحت الاحتلال العربي بعد حملة واحدة شنها عليهم عُمر (يقصد عمرو بن العاص)، ويرى فولتير أن المماليك من ذوي الأصول الأوروبية جاؤوا وتسيدوا مصر بذات السهولة بعد "عُمر"

ويتحدث فولتير عن المماليك لا المصريين، بأنهم هم من هزموا لويس التاسع وأوقعوه في الأسر، لكن هؤلاء المماليك عندما تمصروا فقد أصبحوا "رخويين، جبناء، كسالى، متقلبي النزوات، على غرار السكان الأصليين".

ويعود للتاريخ القديم مرة أخرى، مستشهدًا ببعض ما أورده هيرودوت في كتابه عن مصر من حكايات ساذجة، ليؤكد أن الشعوب المهزومة تبالغ في نسج الأساطير حول ماضيها القديم، ولا يرى فولتير في الأهرامات وغيرها من آثار مصر القديمة، إلا دليلاً على كبرياء ملوكها وفساد ذوقهم! كما يرى في ذات الآثار دليلا على ".. عبودية شعب غبي، سخر أذرعه، وهي كل ما يملك، ليرضي حب سادته للفخفخة". ولا يكتفي فولتير بإدانة النظام السياسي الذي خضعت له مصر القديمة بوصفه مُغرقًا في الطغيان، بل يسخر من علماء التاريخ الذين يرون أن المصريين القدماء قد حكموا العالم متسائلًا " هل كان لأولئك العبيد أن يغزوا العالم!".

* * * *

بلد إشاعات

حينما يتفشى الجهل في المجتمعات، تصبح فريسة للشائعات، وتتلعب بها الظنون والأوهام، ورغم التقدم العلمي واتساع حيز التعليم، إلا أنه مازالت للشائعات دور كبير في خداع الناس والضحك على العقول، لأن التعليم المنتشر ليس هو ذاك التعليم الذي يخلف الوعي والثقافة، ويقيم في العقل الثقة والمعرفة، والموازين الصحيحة، التي تجعل الإنسان سليم الفهم، جيد التصرف، دقيق التمييز، لتسلم حياته من كثير من الخداعات التي تقوم على الأكاذيب وتعتمد الأراجيف.

إن الإيمان عظيم، يقهر الخضوع والاستسلام والتصديق لأي شائعة تستخف بالإنسان وتفسد حياة المجتمعات والأوطان، فحينما أراد النبي صلى الله عليه وسلم الخروج للقاء أبي سفيان في حمراء الأسد، لقي المسلمون من الناس من خوفوهم ورهبوهم حتى يثنوهم عن الخروج بقولهم: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، ولما حاول الوهم والخيال أن يعبث بعقل طائفة من المسلمين، كان الرد الحاسم من البطل الأعظم صلى الله عليه وسلم الذي عَلَّم أمته أن لا تقهرها الشائعات: «والذي نفسي بيده لأخرجن إليهم ولو وحدي»

وعلى مستوى الشعوب، كم نجد الشعب المصري مسكينا طيبًا يسهل خِداعه والعبث بعقليات طوائف كثيرة منه، إن له مع الشائعة فصولا تروى، وقصصا يتعجب لها الخيال سواء في دينه ودنياه .

لقد ادعى العبيديون أنهم ملكوا رأس الحسين عليه السلام، ومن يومها وإلى اليوم، يُعبد ضريحه ويتبركون بالوهم، وهو كذب بين، وخديعة معلومة، أكدها كبار مؤرخي الإسلام وعلماؤه الثقات، ومنهم ابن كثير في البداية والنهاية.

وغير ذلك من أمور الحياة مما يعجب المرء لذكره، فهذا تاريخ الجبرتي، يسجل عددًا من المواقف التي كان المصريون فيها أضحوكة للشائعة، التي اخترقت آذان المجتمع، وسيطرت على الناس، ودللت على ضعف العقل وقلة الالتجاء للعلم، الذي يُثّبت الإنسان وينأى به عن كثير من الخزعبلات والمضرات.

يقول الجبرتي: "وفي أواخر جمادى الأولى يناير ١٧٩١م أشيع في الناس أن في ليلة السابع والعشرين نصف الليل يحصل زلزلة عظيمة، وتستمر سبع ساعات، ونسبوا هذا القول إلى أخبار بعض الفلكيين من غير أصل، واعتقده الخاصة فضلا عن العامة، وصمموا على حصوله من غير دليل لهم على ذلك.

فلما كانت تلك الليلة، خرج غالب الناس إلى الصحراء وإلى الأماكن المتسعة، مثل بركة الأزبكية والفيل وخلافهما، ونزلوا في المراكب ولم يبق في بيته إلا من ثبته الله، وباتوا ينتظرون ذلك إلى الصباح، فلم يحصل شيئا، وأصبحوا يتضاحكون على بعضهم".

فكما قال المتنبي:

وكم ذا بمصر من المضحكات .:. ولكنه ضحك كالبكا

وليت الأمر تعلق بالزلزال والخسوف، بل تعدت الإشاعات لتشمل يوم القيامة نفسه الذي لا يعلم ميقاته إلا الله سبحانه وتعالى .

يقول الجبرتي: "ومن الحوادث الغريبة في ١٩ مايو ١٧٣٥م أنْ أشيع في الناس بمصر أن القيامة قائمة يوم الجمعة سادس وعشرين ذو الحجة، وفشا هذا الكلام في الناس قاطبة حتى في القرى والأرياف، وودع الناس بعضهم بعضا، ويقول الإنسان لرفيقه: بقى من عمرنا يومان، وخرج الكثير من الناس والمخاليع إلى الغيطان والمتنزهات، ويقول البعض للبعض :

"دعونا نعمل خظًا ونودع الدنيا قبل أن تقوم القيامة"، وطلع أهل الجيزة رجالا ونساء، وصاروا يغتسلون في البحر، ومن الناس من علاه الحزن وداخله الوهم، ومنهم من صار يتوب من ذنوبه، ويدعو ويبتهل ويصلي، واعتقدوا ذلك (قيام القيامة بعد يومين) ووقع صدقه في نفوسهم، ومن قال

لهم خلاف ذلك أو قال: هذا كذب، لا يلتفتون لقوله، ويقولون: هذا صحيح وقاله فلان اليهودي وفلان القبطي، وهما يعرفان في الجفور والزايرجات، ولا يكذبان في شيء يقولانه، وقد أخبر فلان منهم على خروج الريح الذى خرج في يوم كذا، وفلان ذهب إلى الأمير وأخبره بذلك وقال له: احبسني إلى يوم الجمعة، وإن لم تقم القيامة اقتلني، ونحو ذلك من وساوسهم، وكثر فيهم الهرج والمرج إلى يوم الجمعة المذكور، فلم يقع شيء، ومضى يوم الجمعة وأصبح يوم السبت، فانتقلوا يقولون: فلان العالم، قال: إن سيدى أحمد البدوي والدسوقي والشافعي تشفعوا في ذلك وقبل الله شفاعتهم، فيقول الآخر: اللهم انفعنا بهم، فإننا يا أخي لم نشبع من الدنيا، وشارعون نعمل حظا، ونحو ذلك من الهذيانات".

* * * *

مُنقذ المصريين

نددت بمقال لكاتبة موتورة، أبدت سعادتها الغامرة بقرار تغيير اسم شارع (السلطان سليم الأول) في القاهرة بمنطقة الزيتون إلى اسم البابا شنودة، حين علقت بقولها: " تحية للقرار الجسور الذي قام بتنحية اسم المستعمر الفاشي السفاح، الذي أذل المصري من قائمة شوارع مصر العظيمة".

كان يمكن أن ننتقى أكبر شوارع مصر ليسمى باسم البابا شنودة، ولا نمانع في ذلك، فنحن نُقر حقوق المواطنة، وكل ما من شأنه أن يوحد ويمتن العلاقة بين المسلمين والمسيحيين في مصر، لكن أن يكون هذا على حساب رمز ديني، وشخصية تنتسب لدولة أعزت الإسلام وفرضت سلطانه على الدنيا الغاشمة بقوة السيف والجهاد، فهذا ما لا تستسيغه العقول الدارسة الواعية، فالسلطان سليم لم يكن كما يشاع عنه، من أنه كان فاشيًا سفاحًا مستعمرًا، وإنما كان الرجل فاتحا عظيمًا وقائدًا منتصرًا، ورافعًا لواء جهاده باسم الإسلام، وليس باسم عائلته أو سعيًا لمجده الشخصي وفخره الذاتي.

من حق الكاتبة أن تصنع التاريخ على مزاجها ووفق أهوائها، حينما تعلم أن المصريين لا يقرؤون ولا يبحثون، وأنه لن يخرج من يعترض على قولها، بل على العكس خرج من يصدقها ويقرر معطياتها، وزعم أن سليم

العثماني كان فاشيًا مستعمرًا سفاحًا قتالا، وهؤلاء من درسوا تاريخ أمتنا تمامًا كما وضعه الغرب، وسجلوه في صفحات مليئة بالزيف والزور، ولم يدرسوه على حقيقته الناصعة.

وأحب أن أُسائِل الكاتبة وأقول لها: ما قولك في نابليون، وقد عرف عن المثقفين العلمانيين في مصر محاولة تمجيد الحملة الفرنسية الغازية، وتصويرها للدنيا بأنها بداية التنوير الحقيقي لمصر؟! ماذا تقول الكاتبة في نابليون الذي أباد ثلث سكان القاهرة في ثورتيها، وأباد كل سكان يافا، وأهان الأزهر الشريف ودك حصونه الطاهرة بمدافعه النجسة؟! ماذا تقول الكاتبة فيه؟! لا شك أن فعل نابليون في نظرها كان أمرًا عاديًا في سبيل التنوير ويقظة الشعب المصري، وهكذا المرجفون.

وما توجه سليم في فتوحاته إلى المشرق، إلا حينما رأى الخطر الشيعي يمتد طامعًا في رقعة الدولة الإسلامية، كما أن الصفويين كانوا متعصبين لنشر مذهبهم ويقمعون أهل السنة في بلادهم، فكان هذا من أكبر أغراض الغزو لإيران، أما فتحه لمصر، فكانت له أسبابه المعلومة، والتي لم تكن تجنيًا أو افتراء، فقد تآمر الغوري سلطان مصر المملوكي مع الصفويين، وكان هناك نزاع قديم على الحدود، وقد عثرت المخابرات العثمانية على خطاب تحالف سري بين المماليك والفرس، مما كان له أكبر دافع لغزو مصر وانتهاء معركة

مرج دابق بقتل الغوري، ولا يمكن أبدًا للتاريخ أن يغفل مدى السفاهة والسقوط الذي عامل به المماليك وسلطانهم طومان باي الذي جاء بعد الغوري، رسولَ العثمانيين حينما استهزأوا به وقتلوه، وهو عمل غير شريف ولا كريم، حين نعلم أن الرسل لا تقتل .

ومما ذكرته كتب التاريخ:" كان لهذه الحملة أسباب عديدة منها الصراع على الحدود بين الدولتين، وموقف المماليك من الصفويين وإيوائهم لأمراء عثمانيين فارين من السلطنة العثمانية، واستغاثة أهل الشام بالعثمانيين من ظلم المماليك، حيث كتبوا رسالة باسم العلماء والفقهاء والقضاة يطلبون من سليم الأول تخليصهم من ظلم المماليك الذي طال المال والنساء والعيال، كما عطلوا تطبيق الشريعة الإسلامية في حكم البلاد"

ولعل النقطة الأخيرة هي التي تعنينا، فعلام يتم التعاطف مع حكومة ليست من أصل البلاد، وقامت بتعطيل الشريعة والتعامل مع الرعية بهذه المعاملة القاسية، التي طالت المال والنساء والعيال وكأنهم احتلال أجنبي؟

بعض الكتاب العلمانيين يحاولون تصوير المماليك بأنهم مصريون وطنيون، ويصورون طومان باي بأنه بطل عظيم كما حدث في رواية الزيني بركات للكاتب جمال الغيطاني، والذي صور طومان باي بالمصري الأصيل، الذي قاوم الاستعمار العثماني لآخر لحظة في حياته، وهكذا جعل الأجنبي

المملوكي الذي ينتمي لنظام ظالم مهين مصريًا أصيلا، وكل هذا حتى يتم تصوير العثمانيين بأنهم غزاة مستعمرين.

لكن تفريط المماليك في الشريعة وظلمهم للرعية، كان المسمار النافذ في القضاء عليهم حينما سلط الله عليهم هذا السلطان الذي يعظم الشرع والدين.

انظر للمؤرخ سلاحثور صاحب مخطوط فتح نامة ديار العرب – وكان مصاحبًا لسليم – كان يقول: " إن سليم الأول كان يبكي في مسجد الصخرة بالقدس بكاء حارًا وصلى صلاة الحاجة داعيا الله أن يفتح عليه مصر "[1]

ما أعجب الأمر كيف يبكي مستعمر فاشٍ؟ كيف تتقاطر دموع الخشية ممن ينعتونه بالسفاح؟ كيف يصلي من يذل العباد؟ كيف يعرف الله أو يضرع إليه من يشبهونه بموسيليني وهتلر؟

إنني لا أبالغ لو وصفت الفتح العثماني لمصر، بأنه يشبه تماما فتح المسلمين الأول لها بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه، حين أنقذوا شعبها من ظلم الرومان وعسفهم، وهكذا فعل سليم حينما أنقذ بفتحه شعب مصر

(١) من مقال للدكتور على الصلابى تحت عنوان، ممالك النار والسلطان سليم ... فضح وكشف الافتراءات.

من ظلم المماليك وطغيانهم، فكان فتحًا ثانيًا حقق عدالة الإسلام ونجى أهل البلاد من غشم الظالمين.

ولعلنا نكرر كثيرًا أن شهادة الجبرتي وهو المؤرخ المصري الذي سجل هذه الأحداث، ما زالت شهادة صادمة لكثير من مبغضي العثمانيين والنافين عنهم صفة الفتح والدين، والمتأثرين بكثير من المؤرخين الغربيين الذين تعمدوا تشويه صورة العثمانيين.

فماذا يقول الجبرتي بعد واقعة مرج دابق وقتل الغوري وخلفه طومان باي؟

يقول:" وعادت مصر إلى النيابة كما كانت في صدر الإسلام، ولما خلص له – أي السلطان سليم – أمر مصر، عفى عمن بقي من الجراكسة وأبنائهم، ولم يتعرض لأوقاف السلاطين المصرية، بل قرر مرتبات الأوقاف والخيرات والعلوفات، وغلال الحرمين والأنبار ورتب للأيتام والمشايخ والمتقاعدين ومصارف القلاع والمرابطين، وأبطل المظالم والمكوس والمغارم، ولما تولى ابنه الغازي السلطان سليمان عليه الرحمة والرضوان، فأسس القواعد وأتم المقاصد، ونظم الممالك وأنار الحوالك، ورفع منار الدين وأخمد نيران الكافرين.. ثم يقول: «وكانوا في صدر دولتهم من خير من تقلد أمور الأمة بعد الخلفاء المهديين، وأشدّ من ذب عن الدين، وأعظم من جاهد في

المشركين؛ فلذلك اتسعت ممالكهم بما فتحه الله على أيديهم وأيدي نوابهم، وملكوا أحسن المعمور من الأرض، ودانت لهم الممالك في الطول والعرض، هذا مع عدم إغفالهم الأمور، وحفظ النواحي والثغور، وإقامة الشعائر الإسلامية، والسنن المحمدية، وتعظيم العلماء وأهل الدين، وخدمة الحرمين الشريفين، والتمسك في الأحكام والوقائع بالقوانين والشرائع، فتحصنت دولتهم، وطالت مدتهم، وهابتهم الملوك، وانقاد لهم المالك والمملوك»

ولعل هذه المقارنة اللطيفة بين دولة العثمانيين المتدينة، وبين دولة المماليك المنحلة، يظهر لنا حقيقة الموقف، وأن الفتح العثماني كان فتحًا وعدلا ونصرًا للدين وإنصافًا للرعية ولم يكن كما قبل: أنه أذل أهل مصر وكان فاشيًا مستعمرًا.

إن كلام الجبرتي يدرس، ولو تمت دراسته لاستخرجنا منه نقاطًا رهيبة فريدة في قوام هؤلاء العثمانيين، وقوام سليم نفسه الذي اتصف بالعفو والصفح والإكرام وإحقاق الحقوق وإبطال المظالم، ولكن المصيبة أن كثيرين حينما شعروا بالعجز والخجل من شهادة الجبرتي، ساقهم الهوى والفجور أن يطعنوا في الجبرتي نفسه، ويصفوه بأنه كان مؤرخ السلاطين، وأنه كان من علماء الملوك، وهو قول أشر وظلم فاجر، فقد كان الجبرتي بطلا مجاهدًا ينصر الحق ويؤيد الصدق، ولا يخاف في الله لومة لائم، وما سيرته مع محمد علي

بمغفولة، ذلك الذي طارده واغتال ولده وحرق بيته وكتبه، ولكن ماذا نقول إذا دخلت الأهواء وداست بأقدامها على الحقيقة؟!

أما مسألة أن الدولة العثمانية كانت خلافة أم لا؟ واعتراض البعض على وصفها بذلك، فإن الصلابي يقول: "إن الواقع التاريخي يقول بأن السلطان سليم الأول أطلق على نفسه لقب: خليفة الله في طول الأرض وعرضها منذ عام ١٥١٤م أي قبل فتحه لمصر والشام، وإعلان الحجاز خضوعه لآل عثمان، فالسلطان سليم وأجداده كانوا قد كسبوا مكانة عظيمة تلائم استعمال لقب الخلافة في الوقت الذي كان فيه مركز الخليفة في القاهرة لا يعتد به، كما أن فتوح سليم أكسبته قوة ونفوذًا معنويا وماديًا وخصوصًا بعد دخول الحرمين تحت سلطانه".

ومما يذكر من تواضعه أنه بعد موقعة مرج دابق، أمر بترميم المسجد الأموي بدمشق، ولمّا صلّى فيه الجمعة، أضاف له الخطيب عندما دعا له عبارة "حاكم الحرمين الشريفين"، لكن سليمًا فضّل استخدام لقب أكثر ورعًا هو "خادم الحرمين الشريفين".

* * * *

المشورة السوداء

كثيرًا ما تحوطنا الأزمات والمواقف الصعبة، التي تدفعنا للنظر فيمن حولنا نطلب منهم الرأي والمؤازرة والمشورة، ومن الحظ التعس أن يكون بينهم صاحب رأي أهوج، يفتقر إلى الحكمة والرؤية والبصيرة التي تجلب النجاة والمصلحة، وتَقي الإنسان كثيرًا من الشرور والمهلكات.

ففي وقت الأزمات، يكون المبتلى كريشة هشة تعصف بها نسمات الهواء العابرة، ويكون كالذي أوشك على الغرق، يحتاج لأي يد تساعده وتنجيه دون النظر والانتقاء لهذه اليد، كما أنه يكون أعمى عن كل شيء حوله، ويمكن له أن يستجيب لأي اقتراح يرى فيه خروجًا من محنته، وهنا تقع المشكلة حينما يفقد المبتلى تمييزه وبصره فيما يعرض على عقله من مخارج .

ومن هنا يجب على الإنسان أن يعرف من حوله جيدًا، ويدرس نفسياتهم ولا يطلب المشورة من أي أحد، فالذي يُستشار لابد أن يكون شخصًا تتوفر لديه عناصر لا يتمتع بها الآخرون، وأهمها بعده عن التحيز والعنصرية والمغالاة، والتطرف في العواطف، والتهور في المواقف، والاندفاع الأرعن في رد الفعل دون النظر للعواقب أو تحسب النهايات.

والتاريخ بيننا مليء بالمصائب، التي حلت على أصحابها حينما قبلوا مشورة أناس معدومي الحكمة والبصيرة، تتحكم فيهم أهواؤهم، وتركبهم حماقاتهم، وتغلب جهلاتهم على عقولهم، فلا يصدر منهم أي رشد أو توفيق.

فإذا نظرت مثلا لغزوة بدر، وكيف وقعت وما السبب في ذلك، لرأيت أن ما جر قريش إلى الهزيمة المحدقة، والملحمة التي هوى فيها كثير من رؤوس كبرائها، إلا مشورة سيئة، ورأي أحمق متهور لا حكمة فيه ولا عقل ولا ذكاء، وإنما كان الدافع له غلًّا أسود، أكل القلوب وأفسد العقول، فما عاد فيها شيء من بصيرة أو حكمة أو تعقل.

إن أبا سفيان حينما شعر أن الرسول صلى الله عليه وسلم يترقبه، أرسل إلى قريش أن يغيثوا تجارتهم من قبضة محمد، لكن أبا سفيان لم ينتظر مجيء قريش، فاجتهد أن يسلك بالقافلة طرقًا تضمن له النجاة من رصد المسلمين، فلما أفلح أرسل لقريش يحثها على الرجوع، وقال لهم: إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، وقد نجاها الله فارجعوا.

لكن أبا جهل وقف بين الناس بعد أن تشاوروا في الأمر وقال: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، فنقيم ثلاثًا ننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبسيرنا وجمعنا، فلا يزالون

يهابوننا أبدًا، وكان هناك من لم يعجبه هذا الرأي، فتخلفوا عن الجيش وانشقوا عن رغبة أبي جهل وهم بني زهرة.

ووقعت الواقعة وجرت المعركة، وكانت هزيمة مؤسفة، فضحت قريشًا بين العرب.

وفي مشهد آخر، حينما انتصر السلطان سليم الأول العثماني في موقعة مرج دابق على السلطان الغوري الذي لقي حتفه في المعركة، وأصبح الطريق إلى مصر مفتوحًا أمام سليم، أرسل رسله إلى السلطان الجديد طومان باي يُخبره أن تدخل مصر في التبعة العثمانية، ويكون طوبان باي باقيًا في مكانه نائبًا للسلطان، ولما وصل المرسوم قرأه طومان باي وفهم معناه، وطابت نفسه إلى ذلك حتى يحقن دماء المسلمين، لكن الله تعالى قدر له من يشير عليه بغير ذلك، فكانت بئس المشورة، التي انتهت بإعدام السلطان وصلبه وهزيمة جيشه، وهي مشورة الأمير علان، ذلك الأمير المملوكي الأرعن المتهور، الذي لم يتمالك نفسه حينما رأى رسل السلطان سليم، فجرد سيفه وضرب أعناقهم، ثم صعد إلى السلطان طومان باي وهو مملوء من الغيظ حسب ما قص (ابن زنبل الرمال) في تاريخه عن الواقعة، وقال له: أصحيح ما قيل؟ قال: نعم، قال: فما الذي عزمت عليه؟

قال: أوافقه على ما أراد، وأكون سببًا في حقن دماء المسلمين، وبقاء كل منا في وطنه، فإني علمت من كلامه أني إذا لم أجبه يحصل فساد عظيم، وهو قادم إلينا لا محالة، والعسكر مختلفون وما أظن إلا أن الله تعالى أراد زوال ملك آل جركس من هذه الديار فما رأيك أنت؟

وهنا تحدث علان في رعونة وتهور، وقال: رأيي أن نقاتل عن بلادنا وحريمنا وأرزاقنا أو نُقتل عن آخرنا، فقال طومان باي: وهل لكم صبر في القتال؟ فقال علان: هذا أسهل ما يكون فإني قاتلتهم في مرج دابق وعرفت حالهم، فليس لهم خبرة في كذا وكذا إذا صادمناهم دكسناهم ودعكناهم تحت أرجل الخيل، فلما رأى طومان باي عزمه اختار القتال، وكانت المشورة السوداء التي جرت عليهم ذيول الهزيمة، وكان عقاب طومان باي أن صلب على باب زويلة، لا لأنه قاتل العثمانيين فقط، وإنما ابتداء لأنه قبل المشورة الحمقاء، وبين يديه قتلت رسل السلطان العثماني.

* * * *

الحاكم الذي فضحته أوروبا

ابتليت مصر على مر التاريخ، بكثير من الطغاة الجبابرة الذين حكموها وأذلوا شعبها، وجاروا على رعيتها، وساسوها بالظلم والقهر والجبروت.

ولن ينسى التاريخ أبدًا طاغية من أبشع الطغاة الذين حكموا مصر بالحديد والنار والكبت والإذلال، فضيعوا رعيتها، ونهبوا ثرواتها، وأذلوا فيها معنى الإنسان.

نعم قد تدهش أننا نتحدث عن هذا الطاغية الجبار، ونجعله من كبار الطغاة، رغم خفاء سيرته وندرة ولوجه في باب الظلم والظالمين، والسبب في ذلك أن تاريخه لم يكتب قبل حركة (١٩٥٢م) ولا بعدها، خوفًا من إرهاب الحاكمين من أسرته، كما أن كثيرًا من الحقائق والوثائق قد اختفت ولم تكن هناك مصادر تُستقى منها طبيعة هذه الفترة المنكرة، فقد حرف إسماعيل كل شيء، وبدل كل المستندات والوثائق التي تظهر فساده وعبثه بمصير البلاد، كان يخشى التاريخ جدًا واستدعى عددًا من الكتاب الماهرين الغربيين، ليوثقوا له فترته ويكتبوا عنه ويظهروه بمظهر التمدن، ولكن هؤلاء كانت فيهم طباع الخيانة، فحينما عادوا إلى أوروبا كتبوا كثيرًا عن أسرار إسماعيل وحقيقته وأخبار إسرافه، وألوان متعته ومغامراته وقسوته وجبروته على مصر

والمصريين، حتى أن الأوروبيين اندهشوا كثيرًا مما ذكر وروي عنهم من طبيعة القصص التي تشبه ألف ليلة وليلة .

قيل عنه: إنه كان الدولة، يتصرف في أرواح رعاياه وأملاكهم، فيُسعد من يشاء منهم، ويشقي من يشاء بغير حساب، مشيئته أمر ورغبته قانون، يطاع طاعة عمياء وليس هناك من يعصيه ليموت خنقًا أو غرقًا أو مسمومًا أو مطعونًا بخنجر من أتباعه وحاشيته.

كان إسماعيل جشعًا جدًا، وبلغ درجة عالية من الطمع ما جعل عماله ينهبون له أموال الرعية ويصادرون له الأراضي، واتخذ في ذلك طريق الإرهاب والاغتصاب، ليفر الناس تاركين وراءهم أموالهم وأراضيهم لهذا الطاغية المغتصب.

ضاعف الضرائب واعتصر دماء المصريين، وعذبهم في سبيل الحصول على المال، وكانت فترة حكمة ١٦ سنة من البغي والألم والمعاناة والمرار الذي تجرعه المصريون.

كان يبتز الرعية ليبدد أموالهم في متعته وأهوائه ومغامراته النسائية في أوروبا، واقتناء التحف وبناء القصور وإقامة الحفلات للملوك الأوروبيين والرشوة للحصول على لقب الخديوي.

وبلغ به الهوى والجشع، فعرف طريق الاستدانة من أوروبا، فأوغل فيه حتى أتعب مصر وبلغت ديونها (٩٦) مليونًا من الجنيهات.

رصد النديم فترة حكمة فنعته بالتوحش وسلبه صفة الإنسانية، لأنه كان يستمتع بامتصاص دماء ضحاياه قطرة قطرة، وكان لا يرفع إلا الأراذل، ولا يقرب إلا الأسافل، فأرسل إلى الأنحاء كل صخري الفؤاد، وحشي الاخلاق، رديء الأصل، خبيث التربة لا يرعى حرمة للإنسانية ولا حقًا للدين ولا ذمة للأخلاق.

نشر الجباة والقواصين في كل مكان من مصر حتى يجمعوا الضرائب، وصور النديم في ذلك صفحات كبيرة، وسجل أحداثا خطيرة، يمكن الرجوع إليها حتى نرى الأهاويل التي أصيبت بها مصر في عهد إسماعيل، حتى أن أحد الجباة شاهد جنازة فاعترضها، وأمر بإنزال النعش من فوق أكتاف المشيعين حتى تدفع الضريبة، التي كانت مستحقة على الميت وصاح الناس متذمرين: لعنة الله على الخديوي، ولم يترك الميت حتى دفعت الشهامة أحد المشيعين ليدفع عنه الضريبة وكانت ٦ قروش.

* * * *

الأزهر يقوم على يد يهودي

سبحان الله مغير الأحوال ومبدل المآل. هل تتخيل أن يكون الأزهر الشريف، هذا الصرح العلمي العظيم، الذي يعد أكبر حدث في تاريخ الإسلام، وأعظم معاهد الهداية على مر الزمان، أن يكون الذي وجهه هذه الوجهة، وصنع منه هذه المكانة، وأقامه على هذه الطريقة، رجل كان في أصله يهودي على غير ملة الإسلام؟!

نعم وبكل اندهاش وتعجب.. فمن أقام هذه المدرسة العملاقة، التي ظلت على مدار أكثر من ألف عام شامخة عالية رفيعة كريمة، تدفع بالعلماء وتخرج الدعاة، الذين أرسوا معالم الهداية والنور في جنبات الدنيا، رجل كان أصله يهودي.. لكنه اهتدى للإسلام وصار رفيع المكانة عِلمًا وقدرًا وجاهًا .

فما الحكاية وما القصة؟!

إنه الوزير الأجل كما كان يلقبه الخليفة الفاطمي العزيز بالله، واسمه (أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلّس) واسمه يدل على ذميته، وكان يهوديًا نشأ في بغداد وغادرها في شبابه إلى الشام، حيث عمل بالتجارة، ولما أثقلته الديون وعجز عن أدائها، فر إلى مصر في عهد (كافور الإخشيد) واتصل به وصار من رجاله، وأقام ببعض المهام المالية بخبرة وبراعة، وكثرت أمواله

حتى أعجب به كافور، ولما بلغه أنه قال عنه: (لو كان هذا مسلمًا لصلح أن يكون وزيرًا) رأى الإسلام أفضل الطرق لتحقيق طموحاته، فدرس قواعد الإسلام وأصوله سرًا، ثم أعلن إسلامه، حتى علت مراتبه وقويت أواصره، واشتهر أمره وقويت منزلته، ولكن بعض وزراء البلاط خافوه، ولم يعجبهم تقدمه ولم يرق لهم نفوذه، وتوجسوا من مستقبله شرًا، فدسوا له الدسائس وأوغروا عليه الصدور، فنظر في أمره، وعلم أنه أوقع به، ففر هاربا إلى المغرب عام (٣٥٧) هـ، ولحق بالمعز لدين الله الفاطمي، والذي كان في هذا الوقت يتجهز لغزو مصر، ولقيه المعز بحفاوة كبيرة، وقدر فيه مواهبه وملكاته، واستعلم منه أنباء مصر وأحوالها، ومواطن قوتها ومكامن ضعفها، وظل معه حتى تم فتح مصر، فولاه المعز الخراج والأموال والحسبة والأحباس وسائر الشؤون المالية، وعهد إليه بشؤونه الخاصة، ولما توفي المعز عام (٣٦٥)هـ، تولى بعد ولده العزيز بالله الذي كانت منزلة ابن كلس عنده أفضل من منزلته في عهد أبيه حتى أنه لقبه بـ (الوزير الأجل) وصار أقوى رجل في الدولة.

قال عنه الذهبي: "وكان عالي الهمة، عظيم الهيبة، حسن المداراة، داهية، ماكرًا، فطنًا، سائسًا، من رجال العالم فكان من أنبل الوزراء، وأحشمهم، وأكرمهم، وأحلمهم".

لم يكن (ابن كلس) كما ذكر عنه وزيرًا وسياسيًا فقط، بل كان عالما وأديبا كبيرًا، محبا للعلم والعلماء، وكان يَعقد بداره مجالس علمية وأدبية دورية، ينتظم في سلكها أكابر الفقهاء والأدباء والشعراء، ويُشرف عليها بنفسه ويهتم بروادها ويغدق عليهم العطاء، ولم يكن محبًا للعلم فقط، بل كان من المؤلفين والمصنفين، حيث وضع كتابًا في القراءات، وكتابا في الفقه، وكتابًا في آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكتابًا في علم الأبدان والصحة، ومختصرًا في فقه الشيعة، وكان يُناظر العلماء ويقرأ كتبه بالأزهر الشريف، كما ضرب بسهمه في الإحسان، فقد كانت له موائد منصوبة دائما، معدة للوافدين، وكان كثير الصِلات والإحسان، وكان علما من أعلام عصره.

ولما مرض جزع عليه العزيز بالله، وأخذ يعوده حتى مات، فحزن عليه حزنا كثيفا، وأمر أن يجهز جهاز الملوك، وخرج من القصر إلى داره في موكب مهيب، حتى وري التراب، وكان الخليفة يبكي عليه بدمع غزير، واهتم واحتجب في دارة ثلاثة أيام لا يأكل على مائدته وعم الحزن كل مكان.

أما قصة (ابن كلس) مع الأزهر، فقبل أن نرويها، لابد أن ندفع ظنًا خاطئًا يظنه بعض الناس، حتى الأزهريون أنفسهم يظنونه، وهو أن الأزهر في أساسه بُني وأُعد لكي يكون منارة علمية ومدرسة معرفية لنشر المذهب

الشيعي، ولما جاء صلاح الدين تحول للدراسة السنية، وهذا ظن خطأ، فالأزهر حينما أنشيء، لم تكن الغاية من إنشائه أن يكون جامعة أو معهدًا علميًا كما صار فيما بعد، وإنما أنشيء ليكون مسجدًا رسميًا للدولة الفاطمية في حاضرتها الجديدة، ومنبرًا لدعوتها الدينية، ورمزًا لسيادتها الروحية، ومضت على بناء الأزهر عدة أعوام، وفجأة دُفع إلى هذه الغاية دفعًا عجيبًا، بلا سابق ترتيب أو تعمد أو قصد، حينما جلس القاضي القيرواني في أواخر عهد المعز بالجامع الأزهر، وقرأ مختصر أبيه في فقه أهل البيت، في جمع حافل من العلماء والكبراء، وكانت هذه أول حلقة علمية بالجامع الأزهر، وتوالت بعدها حلقات أخرى لبني النعمان، وهم من أجل علماء المغرب، وألسنة الدعوة الفاطمية، وعمادها الروحي، لم يكن مضى على الأزهر ثلاثة أعوام، حتى كانت هذه الدروس تشكل نشاطا علميا عاديا، قد يحدث في أي مسجد، حتى جلس ابن كلس في رمضان عام (٣٦٩)هـ وقرأ على الناس كتابًا ألفه في فقه الشيعة وهو الكتاب المعروف بـ(الرسالة الوزيرية) وكان الناس يلتفون حوله ويهرعون إلى سماعها، حتى جاء تفكيره بعد ذلك في اتخاذ الجامع الأزهر معهدًا للدراسة المنظمة المستقرة، فاستأذن الخليفة العزيز بالله في أن يُعين بالأزهر جماعة من الفقهاء للقراءة والدرس، يحضرون مجالسه ويلازمونه ويعقدون مجالسهم بالأزهر في كل جمعة، وكان عددهم سبعة وثلاثين فقيها، ورتب لهم العزيز أرزاقًا وجرايات شهرية حسنة، وأنشأ لهم

دارًا للسكنى بجوار الأزهر، وكرمهم وشرفهم وأعطاهم كذلك (ابن كلس) من ماله الخاص، وكانت هذه الخطوة هي البداية الأولى للجامعة الأزهرية، والانطلاقة الكبرى للمعهد العلمي العريق .

كل هذا كان بفضل الوزير ابن كلس وبعد نظره وحبه للعلم.

* * * *

ثورة الفقهاء

نعم ثورة الفقهاء.. يا له من عنوان غريب!

أهناك فقهاء يثورون؟ وكيف يثورون؟

إن الفقهاء بليدون متخمون، حول الموائد يتزاحمون، وفي الحضرات يسكرون، وبغير أحكام الغسل من الجنابة لا يدركون، وبغير الانحناء للحكام لا يقومون.

نعم أخي، كان هناك فقهاء يثورون، وهذه هي الحقيقة التي حاولوا إخفاءها عنك وطمس معالمها عن إدراكك ووعيك.

فقد أراد الاستعمار وأذنابه تنحية الفقهاء وعلماء الدين عن منصة القيادة والزعامة والتوجيه والثورة في البلدان المسلمة، فقاموا بضرب الأزهر وتعطيل مناهجه، وتنحية الصادقين من علمائه، الذين يقضون مضاجع الظالمين، ويقفون حجر عثرة في وجه أطماع الطاغين.

وصار أول عمل يقوم به الحاكم المستبد الظالم، هو القضاء على سلطان العلماء الربانيين الصادقين، الذين لا تخرس ألسنتهم عن قولة لا، حتى تخلو له الساحة ليعبث في البلاد بشهواته، ويرضي في جنباتها رغباته.

في ضاحية من ضواحي قرطبة تسمى الربض، وفي عهد الحكم بن هشان بن معاوية، الذي لم يكن على صلاح أبيه وتقواه كانت هذه الحادثة الشهيرة التي سميت بثورة الفقهاء، وكانوا في عهد هشام قد وصل نفوذهم إلى حد كبير، فلما جاء الحكم والذي كان بعيدًا عن الزهد ولم يكن على سيرة أبيه من التقوى والصلاح، وقد حُبب إليه الصيد والمرح، ولا يمكن لحاكم هذه سماته أن يتقبل دنيا الفقهاء وينعشه هواهم، فسلبهم كل ما منحهم والده من النفوذ والسلطان.

واتخذ هشام حرسًا من الزنوج، أطلقوا عليهم الخرس، لأنهم لم يعرفوا لغة الناس، وكانوا قساة على الرعية يكرهون الناس.

ولما كان الأمير وحرسه على هذه الحال من التنافر والكراهية من الجماهير، فكر الفقهاء في عزل الحكم وتولية غيره، لكن تدبيرهم كُشف، وأنزل أقصى عقاب بالمدبرين.

لقد أصبح الوضع متوترًا جدًا، والعلاقة ملتهبة لا تتحمل مزيدًا من التحرش والتنافر.

وهو ما حدث بالفعل، ففي ظل هذا الجو الملبد بالغيوم، قام أحد الجنود الخرس بضرب واحد من العامة من أبناء الربض، فثار الناس وهب الفقهاء معهم يحتجون على هذا الاعتداء، وقادوا الجماهير في ثورة عارمة

حاصروا بها القصر، ودارت معركة بين الثوار والحرس، أوشك الثوار فيها أن يقضوا على جنود الأمير، لولا أن دبر مكيدة، استطاع بها أن يكسر حدة هذه الثورة ويتغلب عليها، حين أرسل بعض أتباعه فأشعلوا النار في مساكن الربض وأسرع الثوار يتخلون عن مواقعهم ووحدتهم، لينقذوا زوجاتهم وأبناءهم من النار المحرقة، ولما انفضوا عن القصر، هب الجنود الحرس في أثرهم يضربون ويقتلون.

وقام الحكم بهدم الربض ونفي سكانه من الإسبانيين إلى عدة مدن، وعفا عمن نجا من الفقهاء، لقد كان الفقهاء يرون أنفسهم أصحاب نفوذ وقوة، يهتمون بمصالح الأمة، ولو حكم الأمر بهم أن يُنزلوا الحاكم عن عرشه ويثورون ضده، وهي التصورات المزعجة، التي يحاولون اليوم محوها من الدين والتاريخ واستبدالها بعلماء أنطاع منبطحين سلبيين.

وفي مصر وتحديدًا على أرض الإسكندرية، كانت مذبحة هائلة للعلماء والأئمة، أفرغت المدينة من العلم والعلماء، فتعطلت بها الشعائر الدينية، وسقط فيها العلم، ولم تقم بها صلاة الجمعة.

نعم كان ذلك أيام الفاطميين، بعد وفاة الخليفة المستنصر بالله (٤٨٧ هـ) حيث قام وزيره الأفضل بدر الجمالي، فأجلس أبا القاسم أحمد أصغر أولاد الخليفة المتوفى على عرش الخلافة، مما أدى إلى غضب الابن الأكبر نزار،

الذي فر إلى الإسكندرية، واتصل بواليها (أفتكين) وأقنعه أن يؤيده ويناصره، ووعده بالوزارة إن هو وقف بجانبه، ليكونن له له، فاستجاب أفتيكن لدعوته، واتصل بأهل الإسكندرية، وأقنعهم بمبايعته، ولقبه بالمصطفى لدين الله.

وأمام هذا الخروج اضطر الوزير بدر الدين أن يخرج بجيش من القاهرة إلى الإسكندرية ليقضي على هذا التمرد، وجرت بينهما حرب انتصر فيها نزار ومن معه من أهل الإسكندرية حتى قوي أمره، واستولى على بلاد الوجه البحري.

لكن بدرًا لم يستسلم، فإذا به يجهز جيشًا جديدًا حاصر به الإسكندرية حصارًا عنيفًا، حتى ضاق الأمر بنزار وصحبه، وهرب منه بعض مناصريه، ففت ذلك في عزمه وانتهى الأمر بهزيمته، ودخل جيش الجمالي الإسكندرية، وقبض على نزار وأرسله إلى القاهرة ليقتل بها، ويحكي التاريخ أن الوطأة كانت شديدة على الإسكندرية، وأصابها كرب عظيم فتهدمت بيوتها ونهبت ومنعت عنها الميرة، ونصبت عليها المجانيق، ومنيت بكثير من التخريب، ولم يكتف الجمالي اللعين بهزيمة عدوه نزار، ولكنه اتجه لينتقم من أهل الإسكندرية انتقامًا شديدًا لتأييدهم لخصمه، ومبايعتهم له بالخلافة، وكان ممن نالهم العقاب القاسي، زمرة كبيرة من علماء المالكية، الذين وقفوا بجوار

نزار وبايعوه وناصروه، فتعطلت الشعائر، وأوقفت الصلاة وضاع العلم في المدينة، ولم تقم الجمعة كما ذكرنا بمساجدها، وهذا يعني أن الطاغية الجبار، استأصل شأفة العلماء والأئمة، حتى أدى الأمر بتعطيل الصلاة، وكان مذهب مالك هو السائد وقتها بين أهلها.

ولم يكن قيام العبيدي الفاجر بهذه المحنة للعلماء الكرام، لخلافه السياسي فقط، وإنما من المؤكد أن خلافه العقيدي ساقه للولوغ في دمائهم بلا خوف ولا خشية، فالشيعة يرون في قتل أهل السنة قربة إلى الله سبحانه وإلى دينه الذي يتبرأ منهم ومن كثير من عقائدهم وأهوائهم.

وهكذا العلماء دومًا على مر التاريخ، لم يكونوا بعيدين عن السياسة كما يشاع في هذا الزمان، بل كانت السياسة لا تقوم إلا بهم، ولا يستقيم أمر الحكم إلا بمشورتهم، ولا يستوي سلطان على عرشه إلا بموافقتهم، وهي حال يتنكر لها ما صار عليه العلماء في هذه الأيام، من عزلة تامة عن السياسة وأحوال الأمة ومصالح الناس، حتى قال بعضهم: لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة.

❋ ❋ ❋ ❋

أموات يحكمون

لعلنا حزنا كثيرًا واندهشنا حينما رأينا الرئيس الجزائري (عبد العزيز بوتفليقة) رحمه الله وهو يعلن أو يعلنون له، ترشيحه لفترة رئاسية خامسة، ثم تضحك وتضرب كفًا على كف، حينما تبصر الرجل في عداد الموتى، عاجزًا لا يتحرك، ولا تقدر عيناه حتى أن تلتفتا يمنة ولا يسرة، لا وجهه، فكيف إذن يحكم ويدير أمر دولة؟

أما أنا فلا أتعجب من شيء، لأنني قارئ للتاريخ الذي أخبرني أنه يمكن بكل سهولة للميت أن يحكم ويسيطر ويهابه المحكوم والعدو.

أما الذين حكموا فعلا وهم أموات، واقتضت الحاجة الملحة، أن تنتصب أجسادهم الخائرة الهامدة، لتباشر مهمة الأحياء، فإن هناك بعض الحوادث التاريخية التي تسجل لنا هذه الحالة.

نعم.. رجال ماتوا وصعدت أرواحهم للسماء، لكن أجسادهم لم تفقد وظائفها وحيويتها وقدرتها على الحكم، فقد ظلوا في سلطانهم ووظائفهم كما هم، حينما دعت الحاجة لاستمرارهم وبقائهم حتى يؤدوا بعض المهمات الجسيمة في الظروف الصعبة التي لا تتم إلا بوجودهم.

وكلنا نقرأ في القرآن الكريم هذه الحادثة الشهيرة في قوله تعالى: "فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ"(١)

لقد كان سليمان عليه السلام، يمسك بعصا من شجرة الخروب يتوكأ عليها، وهي من أنواع الخشب القوي الذي يعمر أكثر من مئتي سنة، وظل عليها قائما في محرابه يسبح ويستغفر ربه، والجن تمر عليه ويظنونه يصلي، حتى جاءت حشرة من آكلات الخشب، فجعلت تأكل العصا من أسفلها، فلما ثقل عليها جسده الشريف خر ملقيًا على الأرض، وكان قد مر على موته وقت طويل، فتبين للناس أن الجن لا يعلمون الغيب، فها هو بين أيديهم يرونه ليل نهار لا يستطيعون الاقتراب منه، ويخافون الهلاك لو أنهم تركوا مكان خدمتهم قبل أن يأذن لهم بذلك .

وذكر المؤرخون: أن رؤساء الجن كانوا سبعة، وكانوا منقادين لسليمان عليه السلام وكان داود عليه السلام أسس بيت المقدس، فلما مات أوصى إلى سليمان في إتمام مسجد بيت المقدس فأمر سليمان الجن به فلما دنت وفاته، قال لأهله: لا تخبروهم بموتي حتى يتموا بناء المسجد وكان بقي لإتمامه سنة" قال

(١) سورة سبأ – الآية ١٤.

أبو جعفر النحاس: وهذا أحسن ما قيل في الآية، ويدل على صحته الحديث المرفوع (وفيه) قول سليمان: اللهم اعم عن الجن موتي حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب.

وقال الطاهر بن عاشور: "إن تلك المدة لم تطل كثيرًا، لأن مثله في عظمة ملكه لا بد أن يفتقده أتباعه".

ومن أشهر هؤلاء الذين ظلت أجسادهم تمارس وظيفتها وسلطانها دون أرواحهم، الملك الصالح نجم الدين أيوب، حين أخفت زوجه شجر الدر موته عن جنوده وقواده، حتى لا ينفرط عقدهم وتهون عزيمتهم في حربهم أمام الغزاة الفرنسيين، في حملتهم الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع، الذي تم أسره والإيقاع به في المنصورة، ولم ينس التاريخ تمجيد شجر الدر لهذا الموقف الذكي الحكيم والذي لولاه لحدث خلل رهيب ربما هدد مسيرة الجهاد والنصر، ومكن جنود الصليب من ربوع مصر.

وفي سنة (١٥٨ هـ) كما ذكر ابن الأثير في تاريخه: "خرج المنصور حاجًا وأخذ معه وزيره الربيع بن يونس، وفي الطريق إلى مكة عرضت للمنصور علة أجهدته، ولكنه قاوم وسار الركب يحث الخُطا، غير أن المنية فاجأته قبيل دخول مكة في السادس من ذي الحجة في نفس العام، ولم يحضره عند وفاته إلا الربيع، فكتم موته ومنع النساء وغيرهن من البكاء عليه، فلما

أصبح الصبح، ألبس الربيع المنصورَ ملابسه وسنده، وأجلسه خلف كِلة خفيفة، يُرى شخصه منها، ولا يفهم أمره وحضر وجهاء بني هاشم فاتخذوا مجالسهم بحيث يرى الخليفة، وتقدم الربيع إليه فكأنما يحادثه، ثم عاد الربيع إليهم ينقل أمر الخليفة في تجديد البيعة للمهدي، ففعلوا ثم أخرجهم الربيع، وبعد برهة خرج إليهم باكيا ناحبا معلنا موت أبي جعفر المنصور"

ولعل هذا الموقف من الربيع قد أزعج المهدي ولي العهد وعلق عليه بقوله: ما منعته هيبة أمير المؤمنين من هذا الفعل به" لقد أراد الربيع بهذا الأمر أن ينال حظوة عند المهدي، ولكن التصرف خانه وسوء التدبير.

* * * *

التناقض صفة أصيلة

من يقول ويحكي ويحكم بأن التناقض صفة منكرة في الإنسان، وما أرى من خلال ما قرأت ووعيت ودرست، إلا أن التناقض صفة أصيلة في كثير من البشر، فمن يقدم الحب يقدم الكره ومن يحب الغنى أحيانًا يحب الفقر، ومن يرحم أحيانا يقسو، ومن يحب الظلم أحيانًا يعدل، ومن تعلمه ذكيا تراه أحيانا غبيًا، ومن تراه قويا تبصره أحيانا ضعيفًا.

هكذا التناقض قُدر له أن يلعب في حياة الإنسان دورًا كبيرًا، ومع شدة نكراننا له وتحاملنا على أصحابه، واتهامنا لهم أنهم غير أسوياء، إلا أننا لو تبصرنا أحوالنا كثيرًا لوجدناها تمور في التناقض مورًا، ورأينا أنفسنا نغرق في عالمه إلى الأذقان.

من الشخصيات المحيرة في التاريخ، والتي كانت تأخذها دوامة التناقض، وتصدر منها مواقف يُباين بعضها بعضًا، عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) فعلى ما كان في الرجل من شدة وقوة وقسوة وحزم، كان فيه لين ورفق ورحمة.

إن الحكم آفة ملعونة تُصير الإنسان وحشًا غادرًا وخطرًا لا يؤمَن جانبه، فتصدر منه أفعالا تكون وبالا على الإنسانية لو كان لا يتقي الله تعالى،

بل تجعل منه آية غريبة في التناقض الذي يأتي بفعل، ثم لا يلبث إلا أن يأتي بما يناقضه ويخالفه.

فر عبد الرحمن من بطش العباسيين الذي اقتلعوا جذور بني أمية من الوجود بلا رأفة ولا رحمة، رأى عبد الرحمن مصارع قومه وإخوته، فامتلأ قلبه بالهم والحزن والفزع، لما شاهد من وحشية الهاشميين المنتقمين الذي لم يسلم منهم الأحياء والأموات حينما نبشوا قبور الأمويين، ومن وجدوا جثته منهم أخرجوها وصلبوها وجلدوها، وهي جسد بلا روح، وهو ما يعكس حالة الاحتقان الشديد، والغل الفريد الذي أصاب العباسيين.

هل هذه القسوة كان لها تأثير كبير في شخصية الفتى المتجه للأندلس، والساعي إلى قيام دولة جديدة يكون هو قائدها وأميرها، وعلى قدر هذه القسوة، كانت هناك رحمة وكان هناك عفو، وهو التناقض الكبير الذي كنا نجده في شخصية عبد الرحمن، كان يبهر كل من يقترب منه بجميل صفاته، وجمال خلاله ورجاحة عقله وذكائه ومعرفته.

لقد أوصل الملك عبد الرحمن لقسوة لا نظير لها، جعلته يغدر حتى بالمقربين إليه وأهله وذويه، مثله تمامًا مثلما فعل أبو جعفر المنصور في الشرق، فقد قتل ابن عمه عبد السلام بن هشام، وقتل ابن أخيه أبان بن معاوية، ونفى أخاه خالدًا، ومما ينسب إليه من القسوة والغدر، أنه أغرى أهل طليطلة بأن

يعقدوا معه صلحًا، وأن يبعثوا إليه برؤوسائهم لتوقيع عقد الصلح، ولما وصلوا إليه صلبهم جميعًا.

ووصفه بعض المؤرخين بقوله: "كان شديد البطش لا يرعى إلًا ولا ذمة"

وهناك بعضهم من دافع عنه في محاولة لتبرير أعماله من القسوة والقمع، وهو المؤرخ المقري في قوله: "كان من الصعب على عبد الرحمن أن يسلك سبيلا أخرى لتوطيد الحكم بين مشاغبي العرب والبربر، وأنه لم تكن لديه وسيلة لاجتثاث الفوضى بالشدة والعسف، لأن كلا الفريقين لم يعتد الحكم المنظم"

وكان من سياسته أنه كان عند اللزوم، أن يضرب بقسوة حتى يضمن السلامة، وقد رأيناه يصلب والي طليطلة هشام الفهري، حتى لا يقدم غيره على ما أقدم عليه.

اتفق أبو جعفر المنصور سرًا مع أمير عربي من الأندلس اسمه «العلاء بن مغيث الجُذامي»، ووعده بإمارة الأندلس، إن هو انتصر على خصمه، وبعث له بلواء الدولة العباسية وبسجل تعيينه على الأندلس، وكانت النتيجة أن «عبد الرحمن الداخل»، قتل «العلاء»، أمير العباسيين، وشتت شمل أنصاره، ثم حشى رأسه بالملح والكافور وأرسله إلى «المنصور» وذلك سنة

١٤٧هـ، وكان حينذاك في الحج، فلما رآه صاح قائلا: «الحمد لله الذي جعل بيننا وبين هذا الشيطان بحرًا»

ونحن أمام هذا القائد الباطش الموتور الذي يأخذ بالظنة، ويغلب السيف على قراراته بلا رحمة ولا رأفة، نتعجب حينما نجده ذلك الرحيم الشفيق العفو الرحيم.

كانت في عبد الرحمن جوانب إنسانية عديدة، تدل على أن قلبه فيه رقة ورحمة ورأفه، ومما يذكر له هذا الموقف الطريف، أنه مرة أسر واحدا من الذين ثاروا عليه، وأركبه بغلا وهو مقيد بالسلاسل، ولحق البغل وراكبه بعبد الرحمن وهو يمتطي حصانًا فارهًا، فالتفت عبد الرحمن إلى الأسير وقال له: يا بغل ماذا تحمل من النفاق والشقاق؟

فقال الأسير: يا فرس عبد الرحمن، ماذا تحمل من العفو والرحمة؟

فاهتز عبد الرحمن لذلك وعفا عنه.

* * * *

عظمة القرار

الخليفة الأكول، أو الخليفة المعجب بنفسه، هذا كل ما حفظه التاريخ عن سليمان بن عبد الملك سابع الخلفاء الأمويين كما يقول بعض الباحثين، وقد حكم سنتين وثمانية أشهر وخمسة أيام

لقد قيل عن سليمان: إنه لبس ذات يوم خلعة الخلافة، ثم نظر إلى نفسه في المرآة فأعجبه منظره وقال: ما أحسن الملك لو دام!

فقالت له إحدى جواريه: لو دام الملك لأحد قبلك لما وصل إليك.

كان سليمان قد تولى الخلافة بعد أخيه الوليد في الأربعين من عمره، وكان معجبًا بجماله ويقف أمام المرآة ويقول: أنا الخليفة الشاب.

أما عن حبه العظيم للأكل، فقد قال المسعودي فى كتابه "مروج الذهب": "كان شبعه في كل يوم من الطعام مائة رطل، وكان يأتيه الطباخون بالدجاج المشوي فيضعها في كمه حتى يقبض على الدجاجة وهي حارة فيفصلها"، بينما قال عنه ابن الجوزي فى تاريخ المنتظم: "إنه دخل بستانا له فظل يأكل منه من الفجر إلى الضحى، ثم جاء له البستاني بشاة حولية مشوية فأكلها من دون خبز، ثم أكل معها دجاجتين سمينتين، ثم عاد لأكل الفاكهة،

ثم أكل سويقا من سمن ودقيق وسكر، ثم عاد للفاكهة وبعدها عاد للقصر حيث أعدوا له غذاءه المعتاد فأكله."

ويذهب ابن الأثير إلى أن "موته كان في دابق من أرض قنسرين لبس يومًا حلةً خضراء وعمامة خضراء ونظر في المرآة فقال: "أنا الملك الفتى" فما عاش جمعة، ونظرت إليه جارية فقال: ما تنظرين؟ فقالت: أنت نعم المتاع لو كنت تبقى غير أن لا بقاء للإنسان، ليس فيما علمته فيك عيب كان في الناس، غير أنك فان .

وقيل: شهد سليمان جنازة بدابق فدفنت في حقل، فجعل سليمان يأخذ من تلك التربة ويقول: ما أحسن هذه التربة وأطيبها! فما أتى عليه جمعة حتى دفن إلى جانب ذلك القبر.

ولعل هذه الأخبار التي تروى عن سليمان ويحاول الرواة تكرارها وترويجها للتعبير والتعريف بشخصيته، محاولة محزنة للتعمية والتضليل عن سلوك الرجل في الحكم، والتورية الظالمة عن أعظم قرار اتخذه خليفة أموي، وخلده في سجل عظماء التاريخ الإسلامي رغم قصر الفترة التي حكم فيها، حينما أوصى بالخلافة من بعده لابن عمه عمر بن عبد العزيز الذي ملأ طباق الأرض عدلا وقسطا بعدما ملئت جورا وظلما، وهكذا مجرد قرار، يرقى بصاحبه لنجباء الأمة ورموزها التي تعتز بهم .

ومن عجب أن الناس يروون عظمة عمر وعدله، ولا يذكرون هذا الشاب العظيم الذي أوصى له بالحكم، وأقامه خليفة على المسلمين.

ولم تكن هذه الوصاية من خطاريف الموت، أو تحت تأثير سكراته، التي يمكن للبعض أن يتهم صاحبها بأنه كان غائب العقل أو ذاهل الرشد، أبدًا لم يكن شيء من هذا، فإن حب سليمان لعمر وتقريبه منه وتمكينه له، كان أسبق من الوصاية بالحكم، فقد أحب الرجل عُمرًا حبا عظيما، وقربه منه وجعله المستشار الأول والوزير الأكبر، بل جعل الخلافة كلها في يد عمر، تسير برأيه وتمشي بأمره حيث قال له: "يا أبا حفص، إنا ولينا ما قد ترى فما رأيتَ من مصلحة العامة فمر به"

لقد فضله سليمان على إخوته الذين كانوا أولى بالوصاية من عمر ثقة فيه وفي تقواه، وما فعلها إلا ابتغاء مرضاة الله، بل يمكن القول بكل سهولة أن عمر بن عبد العزيز لم يحكم كما هو معروف لمدة سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام، وإنما يضاف إليه فترة حكم سليمان لأنه كان تماما كأنه الحاكم وولي الأمر.

ومن هنا، أرفض جدا كلمة بعض الباحثين بأن التاريخ لم يحفظ لسليمان إلا أنه كان أكولا.

لنقل: إن التاريخ قد حفظ لسليمان أعظم قرار، وأجل سياسة، وأغلى وصية صدَّرته ليكون من أعاظم الخلفاء المسلمين.

ومما يحسب لسليمان ويذكر له ويعلي التاريخ مقامه من أجله أنه كان شديد البغض للحجَّاج، فقد أجار عنده يزيد بن المهلب أحد المعارضين الرئيسيين للحجاج، وكان سليمان يستاء منه، وحينما تولى الخلافة بعد أخيه الوليد، أقال عمال الوليد وولاته وكل الموالين للحجاج بصلة، وعين يزيد بن المهلب، واتخذ من عمر ورجاء بن حيوة مستشارين له، وأطلق الأسرى وأخلى السجون، وأنهى المظالم، وكان صدامه مع الفاتح الكبير قتيبة بن مسلم لأنه كان من مناصري الحجاج ورجاله، كما كان نفس الموقف من محمد بن القاسم الثقفي ابن أخي الحجاج الذي مات في ظروف غامضة، أما الفتوحات فلم تكن بنفس الكثافة التي كانت عليها في عهد الوليد، ولكنها كانت مؤثرة كما انشغل في أغلب زمنه بمقاومة التمردات، وفي عهده عاد المسلمون إلى غزو طبرستان على ساحل بحر قزوين الجنوبي سنة ٩٧ هـ/ ٧١٦م، بعد أن بدأ أهلها بالتمرد، حتى ردّت جرجان وطبرستان ودهستان على يد يزيد بن المهلب، وغزا ابنه داود بن سليمان الصائفة ففتح حصن اسمه "المرأة"، وغزا مسلمة بن عبد الملك ففتح حصن "ابن عوف" وحصن "الحديد" وبرجمة، وغزا عمر بن هبيرة بلاد الروم من البحر، واشتدت

الحرب مع الإمبراطورية البيزنطية، وبلغت ذروتها في حصار القسطنطينية سنة ٩٨ هـ / ٧١٧ و٧١٨م.

توفي ابنه أيوب فحزن عليه، ومات سليمان بعد وفاة ابنه بـ ٤٢ يومًا فقط في قرية دابق من أرض قنسرين. وأوصى بالخلافة من بعده كما ذكرت لابن عمه عمر بن عبد العزيز، وكتب كتابًا نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز، إني وليته الخلافة من بعدي، ومن بعده يزيد بن عبد الملك، فاسمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله ولا تختلفوا فيُطمع فيكم».

قال ابن سيرين: «يرحم الله سليمان، افتتح خلافته بإحياء الصلاة، واختتمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز»، وكانت سنة وفاته سنة ٩٩ هـ، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز، وكان منقوش في خاتمه: «أؤمن بالله مخلصًا».

* * * *

دموع المظلوم

أتدري ما معنى أن يبكي الخليفة؟ ثم أتدري ابتداءً ما معنى كلمة خليفة؟ إنه ذلك الشخص الذي ملك المشرق والمغرب، ودانت له الممالك والدول، وأقبلت عليه الدنيا تخطب وده ورضاه، وتهتدي بأمره ورأيه .

إنه أقوى رجل في العالم، وعرشه أعز عروش الدنيا، إنه من هزم الأمم، وقهر الجيوش، وهدم العروش، وسقط بحد سيوفه قلاع الشرق وحصون الغرب.

ومع هذا، ومع رجل كهذا، وبهذا القدر وهذا المقام، استطعنا أن نرى البكاء والدموع تنهمر من مقلتيه على خديه، خشية ووجلا من الله تعالى، وهو ما حفت به أو اكتظت به وتناولته وسجلته كتب التاريخ عن حضارتنا العظيمة، وتاريخنا المجيد، كثيرون جدًا بكوا وذرفت دموعهم بدايةً من أبي بكر رضي الله عنه، ومرورا بالأمويين والعباسيين إلى تاريخ العثمانيين، حتى الذين أثر عنهم الشدة والبطش، ورد مع ورود بطشهم ضربًا من بكائهم، وخبرًا عن دموعهم.

انظر لنموذج منهم أشيع عنه كذبًا وزورًا أنه ماجن فاسد زير نساء، وقد كان أعبد الناس وأخوفهم لله تعالى، وهو هارون الرشيد، فقد قال

لشَيبان يومًا: عِظْني، فقَالَ له: لأن تصحب مَن يخوفك حتى يدركك الأمنُ، خيرٌ لك من أن تَصْحَب من يؤمنك حتى يُدركك الخوف، قال: فسِّر لي هذا، قال: من يقول لك: أنت مسؤول عَن الرعية فأتق اللهَّ، أنصَح لك ممن يقول: أنتم أهلُ بيتٍ مغفورٌ لكم، وأنتم قرابة نبيكم، فبكى الرشيد حتى رحمه مَن حوله.

وأنت هنا أيها القارئ لابد أن تتأمل جملة (حتى رحمه من حوله) أي أن البكاء بلغ به مبلغًا وعرًا كبيرًا.

قال أبو معاوية الضرير: ما ذكرت النبي صلى الله عليه وسلم بين يدي الرشيد إلا قال: صلى الله على سيدي، ورويت له حديثه: وددت أني أقاتل في سبيل الله، فأقتل، ثم أحيا ثم أقتل، فبكى حتى انتحب.

وأنت كذلك أيها القارئ مدعو هنا وبقوة أن تتأمل جملة (فبكى حتى انتحب) أي وصل بكاؤه حد النحيب.

وقال الأصمعي: دخلت على الرشيد وهو ينظر في كتاب ودموعه تنحدر على خديه، فظللت قائما حتى سكن، وحان منه التفاتة فقال: اجلس يا أصمعي، أرأيت ما كان؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، فرمى بقرطاس فإذا فيه شعر لأبي العتاهية بخط جليل، كان منه:

أين الملوك وأين غيرهم؟ .:. صاروا مصيرا أنت صائره

نل ما بدا لك إن تنال من الد.:. نيـــا فـإن الموت آخره

ثم قال الرشيد: كأني والله أخاطب بذلك دون الناس، فلم يلبث بعد إلا يسيرًا حتى مات.

هذه هي الصورة المثلى التي تفردت بها أمتنا وحضارتنا وتراثنا وقيمنا، أمتنا وحدها هي من قدمت هذا المشهد الذي خلده التاريخ، ووعاه القديم والحديث، فعرضت حكامًا أصحاب قلوب حية وضمائر يقظة، تدرك قوة خالقها وتخشاه مهما تقلبت أجسادهم في نعيم الدنيا ورغد الحياة وسلطان العيش، اذكر لي يا من تتشدق بالغرب والشرق مثالا لرئيس أو ملك أو حاكم في روسيا وأمريكا وإنكلترا وفرنسا، بكى يوما لحال إنسان أو لمكوثه بين يدي الديان.

إن بكاء الخليفة والقائد والزعيم والرئيس والمطاع لا شك يعني أن الدنيا تحت يديه ستنعم بالخير والهدي والبشر واليسر والرحمة والعطاء والشفقة والهناء.

وأمام هذه المشاهد الرائعة، ما بال هؤلاء الرؤساء والسلاطين والملوك اليوم، الذين لم يملك الواحد منهم تسع أو عشر ما كان يملك الرشيد من الأمم والممالك، ثم يمتلئون كبرًا وعلوًا وغطرسة، ينسون معها أن فوقهم قويا

قاهرا ملكا مقتدرا، يُعرضون عليه يومًا ليحاسبهم على النقير والقطمير، ألا يدركون أنهم إلى فناء، ألا يدركون ما أدركه الرشيد من زوال الحياة ومصيرها الفاني؟!

ما أسعد الدنيا! وما أسعد الأمة! وما أسعد الرعية! بزعيم يبكي من خشية الله، ويعرف قلبه سريعًا طريقه إلى الدموع التي يرجو بها الشفاعة عند الله تعالى يوم العرض عليه.

تذكر بعض المصادر العربية القديمة مثل كتاب ألف ليلة وليلة بأنّ الخليفة هارون الرشيد كان مترفًا، وصوّرته على أنّه كان غارقًا بالملذات والجواري، ويستمتع بالرقص معهن وتناول الخمر، كما عمل المستشرقون حديثًا وبعض الكتاب المتغربين على تشويه تاريخه وسمعته، وحتى ساعد في هذه الحملة بعض الأفلام والمسلسلات السينمائية قديمًا وحديثًا، والحقيقة أنّه من عظماء خلفاء الأمة الإسلامية الذين طأطأ الروم رأسهم له، كما كان عابدًا وزاهدًا، يحج عامًا ويغزو عامًا، كما كان يصلّي في اليوم والليلة ما يزيد على المئة ركعة، ويصوم ويتصدق كثيرًا، وغير ذلك من أعمال الخير إلى أن توفي رحمه الله تعالى، وقد قال عنه المؤرخ ابن خلكان في كتابه الشهير وفيات الأعيان: "كان هارون الرشيد من أنبل الخلفاء، وأحشم الملوك، ذا حج وجهاد وغزو وشجاعة ورأي"

وانظر هنا لما قال فيه العلماء والمؤرخون الثقات في حقه، فقد ذكر الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد عن هارون الرشيد: "كان يصلي في كل يوم مئة ركعة إلى أن فارق الدنيا، إلا أن يعرض له علة، وكان يتصدق في كل يوم من صلب ماله بألف درهم، وكان إذا حج أحج معه مئة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج أحج في كل سنة ثلاثمئة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الظاهرة".

وقال الإمام الذهبي في التاريخ: "سنة تسع وسبعين ومئة وفيها اعتمر الرشيد في رمضان ودام على إحرامه إلى أن حج ومشى من بيوته إلى عرفات".

وقال الغزالي في فضائح الباطنية: "وقد حُكي عن إبراهيم بن عبد الله الخراساني أنه قال: حججت مع أبي سنة حج الرشيد فإذا نحن بالرشيد وهو واقف حاسرٌ حافٍ على الحصباء، وقد رفع يديه وهو يرتعد ويبكي ويقول يا رب أنت أنت وأنا أنا، أنا العوّاد إلى الذنب وأنت العوّاد إلى المغفرة، اغفر لي".

ووصفه الإمام السيوطي في كتابه "تاريخ الخلفاء": كان أبيض طويلًا جميلًا مليحًا فصيحًا يحب العلم وأهله ويعظم حرمات الإسلام، كثير الغزو والحج، حج تسع مرات وكان إذا حج حج معه الفقهاء وأبناؤهم وجمع كبير،

وإذا لم يحج يحج عنه ثلاثمائة رجل معهم كسوة الكعبة الباهرة، وبذلك اشتهر عنه إنه كان يحج عامًا ويغزو عامًا".

وقال عنه الإمام الطبري: "إنه غزا سبع مرات وجهز عشرين حملة للجهاد في البر والبحرين وظل عهده ممزوجًا بين جهاد وحج حتي إذا جاء عام١٩٢ هـ فخرج إلي خراسان لإخماد بعض الفتن والثورات التي اشتعلت ضد الدولة، فلما بلغ مدينة طوس اشتدت به العلة وتوفي في ٣ من جمادى الأخرى ١٩٣ هـ الموافق ١٤ أبريل عام٨٠٩ م، بعد أن قضى في الخلافة أكثر من ثلاث وعشرين سنة، وتعتبر هذه الفترة العصر الذهبي للحضارة الإسلامية، وكان رحمه الله عابدًا متهجدًا، فكان يصلي في خلافته كل يوم مئة ركعة إلى أن فارق الدنيا لا يتركها إلا لمرض، وكان يتصدق كل يوم من صلب ماله بألف درهم، وكان إذا حجّ أحجّ معه مائة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج أحج في كل سنة ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الباهرة رحمه الله".

ذكر ذلك ابن الجوزي وقال أيضًا: "وكان كثير البكاء من خشية الله، سريع الدمعة عند الذكر، محبا للمواعظ".

يقول القرماني: "وهو من أجل ملوك الأرض، له نظر في العلم والآداب، وكان يصلي في كل يوم وليلة مئة ركعة، وكان يحب العلم ويوقر أهله، وكانت أيام الرشيد كلُها خيرًا، كأن من حسنها أعراس".

* * * *

البرامكة الأبرياء

كان أول معرفتي بهم حينما وقف معلم التاريخ في الصف الأول الثانوي، يحدثنا عنهم ويذكر لنا: أنهم كانوا خداعين منافقين متسترين، يدبرون المؤامرات ويحيكون الحيل، ليعود لهم سالف مجدهم، ويحيوا أيام الفرس، وعبادة النار، وكيف أنهم وضعوا النيران في المساجد بحجة الإضاءة، ولم يكن لهم غرض إلا أن يسجد لها المسلمون .

نعم إنهم (البرامكة) الذين أطاح بهم (هارون الرشيد) عام (١٨٧ هـ)، واشتهرت حادثتهم في التاريخ بنكبة البرامكة، ولعل هذه الشهرة الكبيرة لا تتناسب مع حقيقة ما حدث لهم، فالرشيد لم يقتل منهم إلا رجلا واحدا هو سيدهم جعفر بن يحيى، أما بقية أهله وبنيه فعاقبهم بالسجن.

وأمام ما أشيع عن هؤلاء الناس، من هذه التهم الكبيرة، التي كانت سببًا في نهايتهم، فكان لابد لنا أن نتأمل الأمر، ونقف على بعض الجوانب، ونطرح بعضًا من نقاش الباحثين وما طرحوا من الأسئلة التي تظهر ظلامة هؤلاء الناس، وهل فعلا كانوا كما قيل عنهم ونسب إليهم من الفظائع؟ أم كانت مجرد أكاذيب تروج وإشاعات تروى حتى يُطاح بهم؟ وهل فعلا كانوا يستحقون ما نالهم من العقاب والإقصاء؟!

بداية، لقد كانت تلك الصورة التي تركها مُعلم التاريخ في ذهني باقية مستقرة، حتى طالعت ما أزال هذا الخطأ وبدد هذا الظلم والتشويه، ورأينا من أنصف هؤلاء الناس، ولعلي ألخص هنا بعض النقاط التي تُجلي الموضوع وتزيل بعض الغبار عن الحقيقة.

يرجع أصول البرامكة إلى (برمك) كاهن النيران في أزمان الفرس، والذي أسلمت ذريته مع الفتح العظيم، وانهيار ملك فارس في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعُرف ولده خالد في عهد العباسيين من أول قيام دولتهم، حيث ولاه السفاح الوزارة، وصار ولده يحيى من المحظوظين في عهدي أبي جعفر وولده المهدي من بعده، ثم كلفه المهدي برعاية الرشيد وتربيته وتعليمه، فاهتم به ومنحه من حنانه ورعايته، حتى أن الرشيد كان يناديه بقوله: يا أبي .

ولما ولي الرشيد الخلافة، عظم أمر يحيى، لأنه قد حماه من بطش أخيه الهادي حينما أراد خلعه من ولاية العهد، وتوليه ولده مكانه، فأطلق الرشيد يد يحيى في الدولة كفاء ما أظهر، وقال له: "يا أبت قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم بما ترى واستعمل من شئت"

لقد سماهم المؤرخون (زهرة الدولة العباسية كلها).. قادوا الجيوش، وسدوا الثغور، ودافعوا عن حياض الدولة.

وظلوا على هذه الحال سبعة عشر عامًا في حكم الرشيد، فعظمت مكانتهم، وتضاعف سلطانهم، وهي المكانة والسلطان الذي وجدت من يحسدهم عليه، وينقمهم فيه، وعلى رأسهم (الفضل بن الربيع) الذي كان أبوه حاجب المنصور والمهدي، والذي كان من أبرع الناس حياكة للمؤامرات والدسائس والحيل والخدائع، فأخذ الفضل يكيد لهم، وينقب وراءهم، بكل ما أوتي من مهارة ومكر ودهاء، ويتحالف مع خصومهم، حتى يكشف بعض سوءاتهم، ويقف على شيء من مَزالِّهم، لتكون سببًا في الإطاحة بهم، وإيغار صدر الرشيد عليهم، وتخويفه منهم، حتى ينال مكانتهم، ويتقلد رفعتهم، ويرث مناصبهم.

فأمسك هو وشيعته من المتآمرين، بأُذن الرشيد ينفثون فيها كثيرًا من المخاوف والأراجيف، ويعظمون له صغائرهم، ويضخمون له هناتهم، ويبرزون له خفيهم، وكانت (زبيدة) زوج الرشيد عونًا للفضل بن الربيع في هذه المؤامرة من جهة أخرى، لأنه كان يناصرها في فكرة تولية ولدها الأمين لولاية العهد بدلا من المأمون، وقد أوعز إليها أن البرامكة يريدون المأمون لأن أمه فارسية مثلهم.

وبدأت نفس الرشيد تضيق شيئًا فشيئًا بيحيى بن خالد وولده، وشعر أنهم يستبدون بالأمر دونه، وقام الفضل لا يفتأ بتغذية هذه المشاعر في نفسه،

ولم يكتف بهذا بل أخذ يكيل لهم الأراجيف المفزعة، ويُثير حولهم الإشاعات الكاذبة، بأنهم ملاحدة، ويحنون لأجدادهم الفرس، ويؤيدون العلويين، ويريدون أن يستأثروا بالدولة ويملكوا الخلافة، وأخذ يدعم كل هذه التُهم بما يفتري من الشواهد والأقاصيص والدلائل، حتى تأكدت الضغينة في نفس الرشيد، ففتك بهم وأزال عرشهم ومحى أيامهم.

لم يكن الرشيد قد وقف على بينة أكيدة مما سمع عنهم، أو مما يجد في صدره تجاههم من تهم، فالأمور كلها ظنية وهمية، ومجرد هواجس في النفس، وجدت من يُنميها ويُعظمها حتى صارت أقوى من اليقين في نفسه، وإلا.. فلماذا لم تتحرك كل هذه التهم إلا في هذا التوقيت، وكل أسبابها موجودة منذ قيام الدولة العباسية، ومنذ قيام عهد الرشيد الذي مضى عليه كما ذكرنا ١٧ سنة، اللهم إلا إذا كان هناك من يُثيرها لغرض، وقد ذكر ابن خلكان:" أن (يحيى بن خالد) وجد في جيبه حينما مات رقعة كتب فيها بخطه: (قد تقدم الخصم والمدعى عليه في الأثر، والقاضي هو الحكم العدل الذي لا يجور ولا يحتاج إلى بينة) فحملت الرقعة إلى الرشيد، فلما قرأها لم يزل يبكي يومه كله، وبقي أيامًا يتبين الأسى في وجهه"

لقد كان الرجل إذن مؤمنًا بالله.

ويبقى السؤال: لماذا يبكي الرشيد على قوم أرادوا أن ينازعوه حقه؟ أو قوم متهمين بعبادة النار والحنين لأصولهم الفارسية؟ بل كيف يبكي قوماً قيل عنهم: إنهم يناصرون عدوه وخصومه من العلويين؟

إن هذا البكاء والشعور بالأسى، لا يكون إلا لأنه يشعر أنه متجن معتد عليهم .

ولكن للأسف كان شيمة هذا العهد كما ينوه المؤرخون: يأخذ بالشبهة ويسير بالظنة، ولا مكان فيه للتثبت والتبين، إذ كان السيف يحسم الأمور، ولا ينتظر العدالة حتى تحكم له وتوجهه، ومن ثم كثرت المقاتل وأُزهقت الأرواح، وأريقت دماء الكبار والصغار.

"ولعل أرجح ما قيل في انقلاب الرشيد عليهم إلى ما ذكره بعض المؤرخين أن سبب ذلك قيام جعفر بن يحيى بتهريب يحيى بن عبد الله بن الحسن (أخو إدريس) من سجن الرشيد سرًّا؛ لأنه تعاطف معه لأنه من نسل آل البيت. وقد اتهم البرامكة بالتشيع من قبل بعض المؤرخين، وبلغ الخبر الفضل بن الربيع، من عين كانت له حيث كان يتحين فرصة يؤلب بها الرشيد على البرامكة، فأخبر الرشيد فقال له الرشيد: (ما لك وهذا لا أم لك، فلعل ذلك عن أمري). فانكسر الفضل، فلما جاء جعفر (حبيب الرشيد) دعا

بالغداء فأكلا وتحادثا إلى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال الرشيد: ما فعل يحيى بن عبد الله؟

قال جعفر: بحاله يا أمير المؤمنين في الحبس والأكبال.

قال الرشيد: بحياتي؟

فأحجم جعفر وهجس في نفسه أنه قد علم بشيء من أمره.

فقال: لا وحياتك يا سيدي، ولكن أطلقته وعلمت أنه لا حياة به ولا مكروه عنده. فقال الرشيد: نعمّا فعلت، ما عدوت ما كان في نفسي، فلما خرج أتبعه بصره ثم قال: قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك، فكان من أمره ما كان.

كانت هذه الحادثة سببًا للوشاية بالبرامكة في أخص صفات الوزراء وهي الإخلاص لملوكهم، وذلك طعن مؤثر، ووقر في نفس الرشيد شيء من ذلك أن البرامكة يؤثرون مصلحة العلويين على مصلحته، وهذه التهمة أشد من تهمة الزندقة عند المهدي، وانفرط عقد الثقة بين الخليفة الرشيد والبرامكة وهم أحباؤه وخلصاؤه، فتحمست أمامه عيوبهم وجعلته يستريب فيهم لأدنى شبهة.

حتى كانت سنة (١٨٧هـ) وفيها كان مهلك البرامكة على يدي الرشيد قتل جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي بطريقة بشعة، ودمر ديارهم وذهب صغارهم وكبارهم.

ويبدو أن الرشيد قد ندم بعدها؛ فقد كان يقول: لعن الله من أغراني بالبرامكة، فما وجدت بعدهم لذة ولا رجاء، وددت والله أني شطرت نصف عمري وملكي، وأني تركتهم على حالهم."[١]

وانظر معي هنا إلى ما ذكره ابن كثير عن هذا الرجل الذي أشيع عنه بأنه يحن إلى عبادة النار: "قال له بعض بنيه وهم في السجن والقيود: يا أبت، بعد الأمر والنهي والنعمة صرنا إلى هذا الحال.

فقال: يا بني! دعوة مظلوم سرت بليل ونحن عنها غافلون ولم يغفل الله عنها".

وقد كان يحيى بن خالد هذا يجري على (سفيان بن عيينة) كل شهر ألف درهم - وسفيان من خير فقهاء عصره علمًا وزهدًا - وكان سفيان يدعو له في سجوده ويقول: اللهم إنه قد كفاني المؤنة، وفرغني للعبادة، فاكفه أمر آخرته، فلما مات يحيى رآه بعض أصحابه في المنام فقال: ما فعل الله بك؟

(١) البداية والنهاية.

قال: غفر لي بدعاء سفيان".

وبعد هذا أيكون مثل هذا رجل يحن لعبادة النار؟!

❋ ❋ ❋ ❋

دفاع عن العباسة

من أخطر المشكلات التي تعاني منها الثقافة، وأكبر مشكلاتها المتأزمة، هي قلم الصحفي الذي يظن أن امتهانه للقلم في دنيا الصحافة، يؤهله أن يتكلم في كل شيء، ويمنحه الرخصة أن يخترق كل العلوم والفنون بقلمه، حيث لا ساتر ولا مانع ولا حاجب يفرمل مداده، ويمنعه من الحديث والرأي والنقل والاجتهاد في كل اتجاه، فطالما أنه يستطيع التعبير وجمع الكلمات وصف السطور، فما الذي يمنعه من الكتابة والتأليف؟!

هكذا بكل سهولة ويسر، دون النظر لاعتبارات التخصص والتضلع في كل فن يحاول طرق ميدانه بقلمه، فتكون الطامة والعاقبة، التي تفسد الثقافة وتزور المعرفة وتضلل العقول.

ولعل التاريخ من أكثر هذه العلوم التي نالها هذا التجني والجور، فأكثر الصحفيين الذين كتبوا في التاريخ، كتبوا فيه لأنهم وجدوه المادة الخصبة والعالم الفكري الرحب، الذي يمدهم بمادة ثقافية يتحدثون بها إلى الناس، ويدرجهم في قالب ثقافي يشغل أوقاتهم ودنياهم وأقلامهم إن أصابها وهن أو فتور، حتى نتج عن ذلك وللأسف كثير من الجرائم والمصائب والبلايا التي أساءت لتاريخنا وماضينا، وشوهت صورته حينما ردد الجهلة ورووا أكاذيب الكذابين، ووضع الوضاعين، وأخبار الإخباريين، على أنها التاريخ

الصحيح، فوجد فيها كل مريب وطاعن ضالته ووسيلته في تشويه هذا الماضي المشرق والتاريخ المشرف، وإعطاء صورة مزرية عن مجدنا التليد، التي توعز بالتبرؤ منه والتنصل من أزمانه، والهروب من الانتساب إليه .

إن الصحفي وإن علا ذكاؤه، وتوهجت نباهته، يحتاج لمعرفة الأصول التي يستطيع بها التمييز بين الغث والسمين، ويهتدي بها إلى الأصيل من الزائف، يحتاج إلى عقل واع مفكر متأمل مبصر متدبر، ليمازج به بين الروايات، ويكشف زيف الروايات، ويقف بدقته على نقاط الضعف والخلل.

وقع بين يدي مؤخرًا كتاب تحت عنوان (حكايات الجواري في قصور الخلفاء) كتبه أحد الصحفيين ونشره قطاع الثقافة بأخبار اليوم، والكتاب به كثير من الخلل والزيف والأخبار المكذوبة التي اعتمدها صاحبها، وتحدث عنها بأنها الحقيقة، وهي الكذب الصراح.

فتحت عنوان ساقط، كتبه الصحفي الغافل (غراميات أخت أمير المؤمنين وكيف قامت بدور الجارية في ليلة الزفاف الخفي) واستشهد بكلام الصحفي المعروف جمال بدوي، الذي وقع في نفس الخطأ، وارتكب نفس الجرم، رغم كتاباته التاريخية المتعددة، حينما اعتبر أن العباسة وجعفر من شهداء الغرام.

ثم يقول الكاتب الصحفي:" وقد توقف المؤرخون عند قصة العباسة طويلا " ثم يستشهد بكلام الأستاذ الراحل جمال بدوي، ولا أعلم هل يقصد بالمؤرخين شخص الأستاذ جمال بدوي؟ أم يقصد آخرين من أهل الاختصاص؟!

ثم ينقل عن الأستاذ بدوي تلك القصة المكذوبة والمغرضة، التي نقلها بدوي عن بعض كتب التاريخ التي لم تحقق فيها، وأخذتها بكذبها وخرافتها، وعجرها وبجرها فيقول: "وقصة العباسة أخت الرشيد مع وزيره جعفر البرمكي من نماذج الغرام الذي نشأ وترعرع في أحضان السياسة وقصور الحكم، وتحت رعاية الخليفة نفسه، ثم دارت الأيام وتغيرت الظروف وتقلبت الأحوال وصارت قصة العباسة وجعفر سببًا من أسباب النكبة التي حاقت بالبرامكة.

كان الرشيد يحب أخته كثيرًا، كما كان يحب جعفر البرمكي وكان يجمع بينهما في مجلسه، حتى تسامع الناس بهم وتحدثوا عنهم وأشاروا إلى غرام نشأ بين عباسة وجعفر، حتى قرر الرشيد زواجهما، وقال لأخته ولجعفر تعرفان أنني لا أستطيع فراقكما، وكذلك لا أستطيع مخالفة الشرع، وسأعقد بينكما عقدًا شرعيًا، وما أن سمع الاثنان بهذا الاقتراح، حتى ارتفع صوتهما بالفرحة، ونهضا يقبلان الرشيد، ويدعوان له بطول العمر، فقد آن الأوان أن

يجتمعا بعد حب طويل صامت مكتوم، لكن الفرحة لم تتم حين عاجلهما الرشيد بقوله: ولكن لا يكون بينكما ما يكون بين الرجل وزوجته، فأصابهما حزن كثيف، وكان الثلاثة يجتمعون على هذه الحال، وكانت نفس العشيقين ملتاعة، ولم يكن لهذا الحرمان أن يستمر، وقررت العباسة أن تمضي قدما إلى رغبتها حتى لو غضب أخوها الرشيد، وحاولت أن تقنع جعفر لكنه رفض خوفًا من الرشيد، واحتراما لعهده معه، فذهبت عباسة إلى أم جعفر وطلبت منها أن تقدمها لابنها تحت جنح الظلام على أنها جارية، وهو غارق في نشوة السكر، وفي الليلة الموعودة ذهبت إلى فراش جعفر، وتم بينهما اللقاء، فلما أفاق جعفر قالت له كيف رأيت خديعة بنات الملوك؟ فقال: ماذا تقصدين وأي بنات الملوك أنت؟

قالت أنا مولاتك وزوجتك العباسة، وأضاءت سراجًا بدد الظلام، فذعر جعفر ونهض من فراشه وصرخ في أمه بقوله: لقد بعتيني والله رخيصا! ثم تكرر اللقاء في السر مرات ومرات حتى أثمر عن طفلين، وحين خافت العباسة من بطش أخيها هربت ولديها إلى مكة المكرمة، ليعيشا في كنف البيت الحرام، وكانت حاملا في الثالث، ثم كانت الوشاية من زبيدة زوجة الرشيد، حين روت لزوجها تفاصيل ما حدث، ومن هنا قرر الرشيد أن ينتقم من عباسة وجعفر ومن ذريتهما، فدفن أخته حية، ثم أتى بابنيها فقتلهما، أما جعفر فكانت نكبته وقومه.

ويذهب الكاتب الصحفي المخضرم، ليرد وينكر على بعض المؤرخين الكبار الذين أنكروا هذه الحادثة بأنه لم يقدموا دليلا منطقيًا لرفضهم لها، ولا أعرف أي دليل منطقي هذا الذي يتساءل عنه، ويريده ممن ينكر هذه الحادثة، والقصة كلها تضرب بعضها بعضا بالمنطق والعقل، فكيف يستقيم للرشيد أنه لا يستغني عن أخته العباسة، ثم هي من جهة أخرى كانت حاملا ولثلاث مرات، ألم يصادف مرة أن يلاحظها ويسأل عن حالها، وانتفاخ جوفها أو طول مرضها؟ ثم هؤلاء الذين في القصر من حريمه وجواريه، ألا يلاحظون حملها فيخبرونه بما حصل وما جرى؟ وهذا كله كذب في كذب، واختلاق واضح، وافتراء مفضوح.

"لقد بحث بعض المؤرخين الأقدمين والمحدثين الذين تبصروا في ظروف وقعة البرامكة في العوامل الجوهرية التي دفعت بالخليفة الرشيد للقضاء عليهم وتعرضوا لخبر علاقة العباسة بجعفر فأنكرته نفوسهم، ولما لم تستسغه عقولهم أن يكون سببًا من أسباب نكبة البرامكة هدموا الخبر وأنكروا أن يكون له ظل في الواقع، كما توصل لذلك ابن خلدون - من الأقدمين - فقد لخص في مقدمته صفحة ١٥ رواية النكاح والاتصال أولا ثم فندها من ناحية الاعتبارات الاجتماعية والأخلاقية التي تتمتع بها العباسة عن مواليها آل برمك حيث قال: "وهيهات ذلك من منصب العباسة في دينها و أبويها و جلالها وأنها بنت عبد الله بن عباس، وليس بينها و بينه إلا أربعة

رجال هم أشراف الدين و عظماء الملة من بعده. و العباسة بنت محمد المهدي ابن عبد الله أبي جعفر المنصور بن محمد السجاد ابن علي أبي الخلفاء ابن عبد الله ترجمان القرآن ابن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ابنة خليفة أخت خليفة محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته وإقامة الملة ونور الوحي ومهبط الملائكة من سائر جهاتها قريبة عهد ببداوة العروبة وسذاجة الدين، البعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفواحش، فأين يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها؟ أو أين توجد الطهارة والذكاء إذا فقدا من بيتها؟ أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى و تدنس شرفها العربي بمولى من موالي العجم بملكة جده من الفرس؟ أو بولاء جدها من عمومة الرسول و أشراف قريش و غايته أن جذبت دولتهم بضبعه وضبع أبيه واستخلصتهم و رقتهم إلى منازل الأشراف؟ وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى موالي الأعاجم على بعد همته وعظم آبائه؟ ولو نظر المتأمل في ذلك نظر المنصف وقاس العباسة بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالي دولتها وفي سلطان قومها، واستنكره ولج في تكذيبه، وأين قدر العباسة والرشيد من الناس؟'.

وتوصل الأستاذ محمد فريد وجدي بنتيجة البحث الدقيق والتحليل المنطقي أن علاقة العباسة بجعفر البرمكي، إنما كان خبرًا مختلقا للحط من كرامة الرشيد ومروءته"

ولعل هذا مما يحسب لجورجي زيدان حين أرجع الأمر في نكبة البرامكة لنفوذهم السياسي، ولم يتلفت إلى هذه الأكذوبة التي روجها العوام وقُصاص الفرس، مع ما عرف عنه من الترويج لبض المفتريات.

لقد عبث الفرس كثيرًا بتاريخنا الإسلامي، وشوهوا أبطاله وافتأتوا على عظمائه، ولولا أن القرآن الكريم محفوظ بقدر الله وعنايته، لكذبوا عليه، ودسوا فيه ما ليس منه محاكاة وزيفا.

* * * *

كان مجاهداً ولم يكن ماجنًا

"ظاهر الحياء، كثير التلاوة للقرآن المجيد، صالحاً، ديّنًا، لا يتعرض بشيء من المنكر، ولعله لم ير صورته ولا يعرفه، وكان ليّن الأكناف صالحًا، شريف النفس، كريم الطباع... وصبر على الشدائد والأمور المستعصيات"

ماذا تقول لو قلت لك وسألتك: فيمن قيلت هذه الصفات؟!

لا شك أنك وقتها ستعتقد أنني أقصد الحسن البصري أو مالك بن دينار أو سيد من سادات السلف الزاهدين.

ولكن ستغرق الآن في بحر من الذهول حينما تعرف أن هذه الصفات، قيلت في وصف الخليفة المستعصم الذي دهم المغول عاصمة ملكه وقتلوه، والذي تعرفه أنت وأنا وكل المسلمين بأنه الرجل الماجن الساقط المفرط عاشق الذهب والجواري.

ومن هنا كان التجديد وإزالة الزيف وكشف الشبهات التي ظلمت هذا الرجل وأساءت لحقيقته الناصعة البينة.

هل تعلم أن هناك تخبط وهناك تناقض وهناك أقوال يخالف بعضها بعضًا، تثير الدهشة والتساؤلات العديدة التي تزلزل كثيرًا من قناعات

العقول، التي استجابت ولبت رغبة كثير من الشبهات والمفتريات، ولو أنها فكرت مجرد تفكير بسيط، وأعملت خيوط التأمل لبان لها الحق والرشد.

قراءة التاريخ هي القراءة الوحيدة من بين عيون التراث التي تحتاج إلى أكبر قسط وقدر من حضور العقل وإعمال البصيرة، وإلا كان المرء أسيرًا لكثير من الخرافات والإشاعات الكاذبة المغرضة.

إن تاريخنا وكثيرا من جوانبه قد شابها عديد من الخرافات والأكاذيب التي نصدقها بل نرويها ليل نهار، وليس لها في الواقع حقيقة أو جذور، ولكن أعداءنا كانوا بصيرين بالنتيجة الكبيرة التي ينهدم بها مستقبلنا حينما يشوهون تاريخنا، فشمروا عن ساعد الجد ودسوا فيه وحشوه بكثير من الافتراءات والزيوف الواهنة الآثمة التي تجعلنا نخذى ونحن نقرأ هذا التاريخ.

شخصيات كثيرة عمدت إليها التقلبات السياسية والخلافات الحزبية والعداء الديني، لتشويهها وتشويه صورتها ووسمها بالأساطير التي نرددها اليوم متعجبين مصدقين لائمين لأصحابها الأبرياء، ولعل أبرز الشخصيات التي نالها الافتراء والظلم هو شخصية هارون الرشيد، وحق لهم أن يشوهوا صورته، فقد كان الرجل آية في حب الجهاد وقهر الأعداء والانتصار للدين.

ولكن كان هناك خليفة عباسي مثله قد وقع عليه ظلم كبير شوه صورته، وجعل الناس تلعنه كلما تذكرته أو لاكته ألسنتهم، ولو أنهم أعملوا

عقولهم بقدر يسير من التأمل والتبصر لوجدوا أن كل ما ذكر عنه هراء وزيف ولا يقبله عقل الحصيف.

إنه الخليفة المستعصم بالله الذي اغتاله المغول، والذي تم تصويره بخرافات يمجها العقل، ويظهر فيها على أعلى ما يكون الإنسان اللاهي المستهتر الفاسق الفاجر الذي ضيع أمته وبلاده.

والحق أن الصورة غير ذلك.

وفي ميدان البحث نجد أنفسنا أمام حيرة كبيرة، فبعض كتب التاريخ والتراجم كما يقول أحد الباحثين: تَصِفُ المستعصم بالله العبّاسي أنه رجل متيقظ مهتم بأمور دولته، يتحلّى بالعدل والحلم والكرم ومتابعة شؤون الدولة والاهتمام بالرعية والتدين والتمسك بالأخلاق، وتحمّله كتب أخرى وِزْرَ سقوط الخلافة العباسيّة في العراق؛ لضعفه وحبّه للمال واللهو والتفريط في أمور الدولة، فأيهما يكون المستعصم بالله؟

لقد كان جديدًا أن بعض الكتب تصفه بصفات جديدة علينا، لم نعلمها من قبل، لأننا قوم تشيع فينا مقالات السوء أكثر من شيوع النار في الهشيم.

لقد شهد له المؤرخ ابن الكازروني البغدادي[1] (ت ٦٩٧هـ) الذي وصفه بقوله :

"جميل الصورة، حسن الوجه، كامل المحاسن، أسمر اللون، حسن العينين، مسترسل شعر الوجه، ظاهر الحياء، كثير التلاوة للقرآن المجيد، لا يتعرض بشيء من المنكر، ولعله لم ير صورته ولا يعرفه، وكان ليّن الأكناف صالحًا، ديّنًا، شريف النفس، كريم الطباع... وصبر على الشدائد والأمور المستعصيات، فإن عساكر المغول دهمته ونزلت بين الكشك العتيق والملكية في سابع عشر ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعين وستمئة، فتلقّاهم بعزم شديد، ورأي سديد، وأخرج إليهم إقبالًا الشرابي.. وكان - قدس الله روحه - كثير الصيام والتنفّل".

والحق أن هذه صورة عجيبة، تعكس ما أشيع عن الرجل من خرافات لا يقبلها اللب ولا يسلم لها، ويكفي فقط أن يتساءل المرء؛ كيف لرجل هذا تعلقه بالدنيا ويبقى بأرض توشك أن تغرق تحت سنابك العدو المتوحش؟

(١) هو ظهير الدين علي بن محمد بن محمود ابن أبي العز بن أحمد بن أسحاق بن إبراهيم الكازروني البغدادي الشافعي المولود عام ٦١١ هـ زمن الخليفة الناصر لدين الله والذي شهد نهاية حكم العباسيين لبغداد عام ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م والذي شهد حكم بغداد من حكام الدولة الإلخانية هولاكو وأباقاخان وتكودار خان وآرغون وكيخاتو خان وبايدو خان وجزء من حكم غازان بن آرغون حيث توفي عام ٦٩٧ هـ أي بعد أكثر من أربعين سنه على حكم الدولة الإلخانية لبغداد..

انظر لهذا الخبر الساذج، الذي أورده ابن الفوطي وابن كثير في حوادث سنة ٦٥٦هـ: "وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب، حتى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه، وكانت من جملة حظاياه، وكانت مولّدة تُسمّى (عرفة)، جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة، فانزعج الخليفة من ذلك وفزع فزعًا شديدًا وأحضر السهم الذي أصابها، فإذا عليه مكتوب (إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره أذهب من ذوي العقول عقولهم)، فأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز، وكُثِّرَت الستائر على دار الخلافة"

وأنا أتعجب، إن المرء إذا أحيط بكل ما يشتهيه من النعم لأصيب بالتشبع منها وملالها، لكنهم يصورون هذا الرجل بأنه لا يمل أبدًا من الجواري والمتعة والغناء والمجون، كما تظل حماقته التي لا تليق حتى بأحمق الحمقى، وهو بقاؤه في هذه الأرض التي يحيط بها العدو من كل جانب، لو كان من أهل الدنيا واللهو والمجون لسارع إلى الفرار منها والخوف على حياته.

بل انظر لهذا الخبر العجيب، والذي لا يستقيم أبدًا أبدًا مع صورة إنسان يعشق اللهو والمجون، ويبيت ليل نهار بين أحضان الجواري والمغنيات، والذي يدلل لك كم كان الرجل محباً للعلم خادمًا لأهله يشيد

المكتبات والمدارس، بل يشير إلى مبلغ خلقه العظيم من الحلم والتواضع ولين الجانب ولطف المعشر، وهو خبر ذكره الأرموي[1]، وقد جاء في كتاب الفخري في الآداب السلطانية لابن الطقطقي، قال الأرموي: "كنتُ جالسًا في حجرة أنسخ، وللمستعصم حجرة فيها مرتبة برسم الخليفة، إذا جاء إلى هناك جلس عليها، وقد بسطت عليها ملحفة لتردّ عنها الغبار، فجاء خويدم صغير ونام قريبًا من المرتبة المذكورة واستغرق في النوم، فتقلب حتى تلفّف في تلك الملحفة المبسوطة على المرتبة، ثم تقلّب حتى صارت رجلاه على المسند.. قال الأرموي: وأنا مشغول بالنسخ، فأحسستُ بوطء في الدهليز، فنظرت فإذا هو الخليفة وهو يستدعيني بالإشارة ويخفف وطأه، فقمتُ إليه منزعجًا، فقال لي: هذا الخويدم الذي قد نام حتى تلفّف في هذه الملحفة وصارت رجلاه على المسند، متى هجمت عليه حتى يستيقظ ويعلم أني قد شاهدته على هذه الحال تنفطر مرارته من الخوف، فأيقظه أنت برفق فإني سأخرج إلى البستان ثم أعود. قال الأرموي: وخرج الخليفة، فدخلتُ إلى الخويدم وأيقظته فانتبه، ثم أصلحنا المرتبة، ثم دخل الخليفة".

(١) كان يعمل في خزانة كتب المستعصم بالله.

وفي حوادث سنة ٦٤٣هـ يُظهر ابن القوطي المستعصم بالله العبّاسي في ثوب مغاير عما ذكر في مواجهته للمغول، وهو قول يؤيد ما ذهب إليه ابن الكازروني البغدادي.

قال: "هناك عندما وصل الخبر بوصول المغول إلى بغداد: أن المغول خرجوا من همذان في ستة عشر ألفاً وقصدوا الجبل، فأمر الخليفة بالاستعداد للقائهم وتبريز العساكر إلى ظاهر السور، فأمر حينئذ باستنفار الأعراب من البوادي والرجالة من الأعمال، وتفريق السلاح ورفع المناجيق على السور، وخرج الشرابي إلى مخيمه بظاهر السور، ثم أخذ في تعبئة العساكر وترتيبها ميمنة وميسرة، فوصلتْ عساكر المغول ونزلوا بإزائهم وجَرَتْ بين الطرفين حرب ساعة من نهار، ثم باتوا على تعبئتهم، فلما أصبحوا لم يجدوا من عساكر المغول أحدًا، وكفى الله المؤمنين القتال".

لقد بذل الرجل جهده وما يستطيعه في صد الأعداء عن عاصمة الخلافة، وخاض معركة خسرها واستشهد فيها مع أهل بيته وعدد كبير من العلماء والأشراف والمجاهدين.

هذه هي الحقيقة التي لا تؤيدها الروايات الصادقة وحدها، بل تؤيدها قبلها الروايات الكاذبة، بما تحمل من خيالات وأساطير لا يصدقها

العقل، وكانت كافية وحدها لتكذيب ما جاءت به من تلويث هذه الشخصية المجاهدة النبيلة.

لكن الشيء الوحيد الذي يؤخذ عليه ربما في طيبته ولينه وركونه لحاشية خائنة غير ناصحة، وركن إلى وزيره مؤيد الدين العلقمي فأهلك الحرث والنسل ولعب بالخليفة كيف أراد وباطن التتار وناصحهم وأطمعهم في المجيء إلى العراق وأخذ بغداد وقطع الدولة العباسية ليقيم خليفة من آل علي، وصار إذا جاء خبر منهم كتمه عن الخليفة ويطالع بأخبار الخليفة التتار إلى أن حصل ما حصل، وفيه قال شيخ الإسلام بن تيمية:"وكان وزير الخليفة ببغداد الذي يقال له ابن العلقمي منهم -أي من الرافضة- فلم يزل يمكر بالخليفة والمسلمين ويسعى في قطع أرزاق عسكر المسلمين وضعفهم، وينهى العامة عن قتالهم -أي التتار- ويكيد أنواعًا من الكيد"[1].

* * * *

(١) منهاج السنة النبوية للإمام ابن تيمية.

مواسم الرعب

هل سمعت من قبل عن (الصوائف والشواتي) أو ما يمكننا بكل سهولة أن نسميها مواسم الرعب في فصلي الصيف والشتاء؟!

نعم.. إنها تلك الإغارات أو الحملات العسكرية، التي كان يقيمها المسلمون، بهدف إيصال رسالة قوية إلى عدوهم المتربص على الحدود، الذي يتحين الفرصة لينال منهم في أي وقت، بأنهم ما زالوا قوة قاهرة، وأنه مازالت فيهم نفوس تواقة للجهاد، والموت في سبيل الله، كان لابد من هذه الرسائل القوية، حتى يُعلموا العدو أنه مهما حدث فيهم من توترات وما نالهم من اضطرابات داخلية، وخصومات دموية، إلا أن شوكتهم لم تضعف وقناتهم لم تلن، وكيانهم لم يتصدع.

ولا شك أن هذا العدو الطامع، لا يمكن له أبدًا أن يفكر مجرد تفكير، في العدوان على هذه الأمة التي تدمن الحرب، وتجعل من الغزو وردًا سنويًا لها فيما يسمى بالصوائف والشواتي.. إنها إذن أمة ونفوس، جعلت من السيف حليا في زيها، ووسادة ينامون عليها.

كان المسلمون حتى في فترات الفتن وانشغالهم بالصراعات الداخلية، يدركون تمام الإدراك أن قوتهم في الجهاد وعزهم وبقاءهم مع السيوف،

وأنهم لو تخلوا عن هذا السيف، وتراخوا في حبهم للجهاد، فإن الأمم التي تتربص بهم، سوف تأكلهم وتنهشهم بأنيابها الغادرة.. حتى في عصر الدولة الأموية، كما حدث أيام عبد الملك، الذي كان يواجه عددًا من الفتن، وعلى رأسها محنة عبد الله بن الزبير من جهة، والعلويين من جهة أخرى، كما كان هناك غدر من البربر في أفريقيا، فلم يمنعه ذلك أن يوجه لهم جيشه ليقضي على فتنتهم.

وفي كتب التاريخ ترى عجبًا، فقد كانت هذه الحملات الجهادية كما قلت عنها: وردًا سنويًا معلوم التنفيذ، حتى أن المؤرخين ربطوا بين الحج والجهاد، ولهذا نذكر ما قيل عن هارون الرشيد: أنه كان يحج عامًا ويغزو عامًا، ويتبين لنا أن هذا لم يكن لأنه ملك تقي محب للعبادة، ولكن لأن العرف وقتها كان يقضي بهذا، وكان الخلفاء أنفسهم غالبًا ما يكونون على رأس هذه الحملات العسكرية (الصوائف والشواتي).

إن ابن الأثير والطبري يقرنان الحج بالناس بالقيام بغزو الصائفة، فيقولان: وحج بالناس فلان وغزا الصائفة فلان، فإذا لم يقم العباسيون بغزو الصائفة، فإن الناس وقتها كانوا يعتبرون أن شيئًا ضخمًا في ميزان الدولة أو طبيعة المجتمع، قد تغير وتبدل، يقول ابن الأثير في حوادث سنة (١٣٧هـ) "ولم يكن للناس في هذه السنة صائفة لشغل السلطان بحرب سنباد"

ويقول في حوادث (١٣٩هـ) "... ولم يكن بعد ذلك صائفة فيها قيل إلا سنة ١٤٦هـ لاشتغال المنصور بابني عبد الله بن الحسن"

وكان من أهم الصوائف ما قام به المنصور ردًا على غارة شنها ملك الروم على ملطية سنة ١٣٨هـ، فهدم أسوارها ودخلها عنوة، وقد أعد المنصور رده العنيف على هذه الغارة في الصائفة التالية، وجعل قيادتها لأخيه العباس بن محمد وعمه صالح بن علي، وغزا مع صالح أختيه من عمات المنصور، وهما أم عيسى ولبابة، وكانتا نذرتا إن زال ملك بني أمية أن تجاهدا في سبيل الله.

فدخل صالح أرض الروم وثأر للمسلمين، واستنقذ أسراهم وأحدث مقتلة عظيمة.

ولكن أقسى الصوائف التي عرفها عهد العباسيين وتاريخ المسلمين، تلك التي قام بها هارون الرشيد، فقد كانت أشدها وطأة على البيزنطيين وأكثرها إذلالًا لهم.

إن الصوائف والشواتي هي غارات منتظمة أقامها أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه وخلفاء بني أمية من بعده، الهدف منها هي تدمير الأراضي البيزنطية وتخريبها، فقد كانت الغارات الإسلامية تقام كل صيف وكل شتاء وتتغلغل في بيزنطا، وبعد أن تنتهي مهمتها تعود إلى مقراتها، هذه

السياسة كانت آخر ما أوصى بها معاوية رضي الله عنه المسلمين، حيث قال: شدوا خناق الروم.. فإنكم تضبطون بذلك غيرهم من الأمم.

إنّ الهدف الأساسي من الصوائف والشواتي هو استطلاع الأراضي البيزنطية والتعرف على أحوالها العسكرية والسبب هو تسهيل التوغل الحربي فيها، ولتجعل البيزنطيين الروم في موقف دفاع عن أراضيهم وليس موقع هجوم، وإنهاكهم الدائم، وهي من الطرق التي كانت متبعة لتشعر البيزنطيين أن مملكتهم سهلة المنال، وكما أن الجنود الإسلاميين اعتبروها ساحات تدريبية عل فنون القتال من خلال الغارات التي كانوا يغيرونها على الأراضي البيزنطية، الأمر الذي جعل الجند الإسلامي في أهبة الاستعداد الحربي القتالي للتحضير للفتوحات الإسلامية الكبرى.

ويعد أول من أعد الصوائف والشواتي هو معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وذلك عندما كان وليًا على بلاد الشام، ولم يقف على ذلك فقط، فقد طورها عندما أصبح رئيس الدولة الإسلامية العظيمة.

وعند الغزو في فصل الربيع الذي كانت تمتد مدته إلى ٣٠ يومًا على التوالي، كان المسلمون يستفيدون من ذلك في رعي الخيول في المراعي البيزنطية فقد تكون الخيول قد قويت وسمنت وأخذت قوتها، ثم يرتاح المسلمون وبعدها يشنون غارة الصيف وهذه الغارة تستغرق ضعف الغارة

السابقة أي ستين يوما على التوالي، أمّا بالنسبة إلى غارات الشتاء فلم يكن المسلمون يقدمون عليها إلا في حالات الضرورة القصوى، لكنهم في ذلك لا يمتنعون عن التوغل في الأراضي البيزنطية، لكن هذه الغارات كانت أقر من سابقتيها، إذ أنها كانت تستغرق ما لا يزيد عن العشرين يوما على التوالي.

وكان ميدان الصوائف والشواتي مجالاً يبدي فيه قادة المسلمين مواهبهم، وعلى حين كثير منهم لما أبدوه من شجاعة في هذه الإغارات حتى أغدقت عليهم ألقاب التكريم اعترافًا بجهودهم ونشاطهم، فأطلق على مالك بن عبد الله الخثعمي وهو رجل من أهل فلسطين اسم "ملك الصوائف" لعلو كعبه في الميدان الحربي بآسيا الصغرى، وقد قضى بعضهم الشتاء بآسيا الصغرى متحملا بردها القارص في سبيل تحقيق أهداف الدولة الإسلامية.

وكان المجاهدون يتخذون استعدادات وافية عندما يقومون بالصوائف والشواتي، فإذا نزلوا بأرض البيزنطيين، قسموا أنفسهم أجنادا للحراسة والدفاع والإغارة، وكفلوا وسائل الاتصال بين الأجناد بعضها بعضا، كما أعدوا أماكن الخيل محصنة لدرع الإغارات المفاجئة التي قد يشنها العدو.

بعد سقوط الخلافة الأموية في المشرق أخذوا معهم هذه العادة إلى الأندلس، فكانوا كثيرًا ما يطبقونها على إفرنج الشمال أيام قوة الخلفاء الأمويين .

* * * *

المُرَقّعةُ و الشبهات

عرض أحدهم مؤخرًا لكتاب (فتوح مصر وأخبارها) لابن عبد الحكم، وساق من الكتاب نص الحوار الذي دار بين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبين عمرو بن العاص رضي الله عنه الذي كان يستحث أمير المؤمنين على فتح مصر، وكان مما قاله له:

"إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونًا لهم، وهي أكثر الأرض أموالا، وأعجزها عن القتال والحرب، فتخوف عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المسلمين وكره ذلك، فلم يزل عمرو يعظم أمرها عنده ويخبره بحالها، ويهون عليه فتحها، حتى ركن إليه عمر وعقد له أربعة آلاف رجل كلهم من (عك) (بطن من بطون العرب وأصلهم من مدن اليمن التهامية) ويقال بل ثلاثة آلاف وخمسمائة، وقال له عمر: سر وأنا مستخير الله في سيرك، وسيأتيك كتابي سريعًا إن شاء الله تعالى"

ثم تحدث صاحبنا بقوله: "هذا الحوار الذي دار بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص رضي الله عنهما، وهو ما يؤكد ما ذكرته سابقا في منشور، أن العرب جاؤوا إلى مصر طامعين في خيراتها، معتمدين على ضعف قواها العسكرية، وكما قرأتم أيضا في الحوار لم يذكر نصرة دين الإسلام لا من قريب ولا من بعيد، لقد كانت كلها أطماع الدنيا"

والحق أنه تعليق صادم لا يقوله ولا ينطق به، إلا من غاب كليًا عن تاريخ الفتوح الإسلامية وطبيعتها وأهدافها وغايتها وأحداثها، والتي تعد إلى اليوم شرف الحضارة الإسلامية، ومناط تميزها على العالم كله، الذي كان من شأنه وديدنه العدوان والاستعمار والجشع والنهب والسلب والقتل والاغتصاب، أما المسلمون فكانوا مفخرة في فتوحاتهم، التي لم تكن لمال ولا أطماع، وإنما كانت لنشر رسالة ودين وقيم وفضيلة.

ولعل كلامي هذا يسخر منه الساخرون، ويؤكدون أنه نابع من عصبية وتبعية، لا من عقل وبرهان، ومن ثم سأتعرض للنص نفسه الذي استوحى منه صاحبنا نتيجته، وهتف له وصفق له كثير من أصدقائه العلمانيين، الذين أجزم أن حضارة العرب وتاريخهم وتراثهم لا يعجبونهم في أي شيء.

واضطررت لمراجعة الكتاب وفتح صفحاته والقراءة فيه، وكان دهشي أن الكاتب لم يراجع ما ورد في الكتاب من فتوح إفريقية والمغرب والأندلس، ليرى بعينيه أن هؤلاء الطامعين أنفسهم، قد جاءت الدلائل المبهرة على خروجهم لله وحده لا لطمع أو نهم.

ومن هنا أقول: إن أكبر دليل على بطلان هذه النتيجة، وفساد هذا الاستنتاج، هو دخول المصريين في الإسلام واعتناقهم له عن بكرة أبيهم..

فلو كان العرب قد جاؤوا لأطماع الدنيا، لما وجدت واحدا من هؤلاء المصريين يدخل في دينهم أو يقتنع به.

وعهدي دومًا بالطامع أن يكون جشعًا نهابا سلابًا، يفتك بالضعفاء ويقتل الأبرياء، ويمحو كل شيء في طريقه من أجل المال، كما أنه لا يقدم أبدًا على قوة أكبر منه بمراحل، لأنه ستكون حتما جولة خاسرة، لكن ما ظنك بقوة ٣٠٠٠ مقاتل يواجهون ١٢ ألف من قوة الروم؟

وما ظننا بقوم دخلوا مصر فعاملوا أهلها بالسماحة والرفق واللين والرحمة، حتى أحبهم الناس ودخلوا دينهم؟

بل ما يمنع أن يتحدث القادة عن خصوبة هذه الأرض، ووفرة حصادها وحقولها وغلالها ونعيمها وخيراتها، بجوار غايتهم التي يعيشون لها؟! أي أنها ستكون عونًا للدولة الناشئة التي تحيا لإقامة لا إله الا الله محمد رسول الله.

أرى أن تعامل صديقنا مع هذا النص كان حرفيًا نصوصيًا بشكل كبير، وغائب عن مئات النصوص، التي تؤكد عظمة الفاتح المسلم في خروجه على العالم، لأجل الرسالة وتعبيد الناس لله، ورفع الظلم عن البشر جميعًا.

اين أنت من قولة ربعي بن عامر لرستم قائد الفرس حينما سأله ما الذي جاء بكم؟

فقال له: جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد، لعبادة رب العباد.

وعهدي كذلك بالقادة الميامين الحاذقين المحترفين لفن القيادة، أن يحيطوا علمًا بالدولة التي يقدمون على فتحها، فيجمعون كل ما يخصها من معلومات وأرقام وطبائع ومناخ، وكل شيء عن هذه الارض، خاصة أموالها التي يمكن أن تكون دعمًا للجيش الفاتح لنشر الإسلام؟

فلا أعرف لماذا قصر الأستاذ المحترم مسألة الأموال بأنها طمع ونهم، وأن مجرد ذكر المال يعني أنهم طامعون يسعون إليه؟!

نعم هم يسعون للمال فعلا، ولكن من أجل ماذا؟ من أجل غايتهم وليس لأجل نهم مزعوم وجشع مظنون.

وأما قولك: إنه لم يذكر نصرة الإسلام في كلامه، فهذا والله أمر طبيعي ومألوف، فحينما تكون لنا غاية كبرى ومقررة ونسعى ونعيش لها، فما الداعي لتكرارها ونحن أصلا وأساسًا لا نتحرك إلا لها وبها؟ وهل هو أمر صادر من قائد الجيش إلى القائد الأعلى في خطاب إداري ولا بد فيه من التنصيص على الغاية قبل الحديث عن أي شيء كما هو عادة النظم الإدارية؟!

ولكن بالنظر إلى النص والتمعن فيه، فقد كانت أول كلمة لعمرو بن العاص: (إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونًا لهم)

هذا هو أول ما ورد في كلامه، ويبقى السؤال وهو عونًا لهم على ماذا؟

وهنا كل يؤول حسب فهمه وثقافته وفكره وغايته، لكنني أؤولها حسب التاريخ والوقائع الكامنة فيه، والتي تشهد في عشرات المواقف والمواقع، أن هؤلاء القوم ما خرجوا إلى لرسالة ونشر قيم ودين.

ثم يأتي رد عمر بن الخطاب على كلام عمرو فيقول له:

(سر وأنا مستخير الله في مسيرك)

فهل هذا بالله عليكم رد طامع أو جشع يستخير الله تعالى ويأخذ الرأي والمشورة والنصح والهدي من صلاته له؟! هل يكون هذا هو رد الطامع الجشع النهاب السلاب؟!

إنه لا يستخير الله إلا إذا كان هذا الأمر لله.

بل أين كان الكاتب من رسالة عمر بن الخطاب إلى عمرو وجيشه، حينما تأخر فتح الإسكندرية، وأقسم أنني لن أعلق على الرسالة، لأنها وحدها تملك الدفاع والتحليل والغاية التي خرج المسلمون من أجلها.

ولما طال الانتظار بعث عمر بن الخطاب برسالة إلى عمرو بن العاص يقول فيها:

"أما بعد، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر، إنما تقاتلونهم منذ سنين وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم، وإن الله لا ينصر قومًا إلا بصدق نياتهم، وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر، وأعلمتك أن الرجل منهم بألف رجل على ما كنت أعرف، إلا أن يكونوا غيَّرهم ما غيَّر غيرهم، فإذا أتاك كتابي هذا فاخطب الناس، وحضهم على قتال عدوهم، ورغبهم في الصبر والنية، وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس، ومُرِ الناس جميعًا أن تكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة؛ فإنها ساعة تنزل الرحمة ووقت الإجابة، وليعج الناس إلى الله يسألونه النصر على عدوهم".

فلما وصل عمرو بن العاص الكتاب، دعا الناس وقرأ عليهم كتاب عمر، وفعلوا مثلما أمرهم، ففتح الله عليهم.

ثم انظر هنا لما جاء كتاب عمر إلى عمرو، لم يفتحه حتى نزل العريش، وأخرجه للناس وتلاه عليهم وقال: لم يلحقني الكتاب إلا وأنا في مصر (فسيروا على بركة الله)

فهل هذا طامع يرد طامع؟ وما هي بركة الله التي يستحثهم أن يسيروا عليها؟

إنها أقوال إيمانية تؤكد أن القوم مرتبطون بالله تعالى ابتداء، وقبل أي غرض أو غاية.

إن التاريخ لا يتجزأ، ولا ينفصل بعضه عن بعض، وأنا ضد تضخيم الألفاظ وتحميلها أكثر مما تطيق، وإنزالها في غير منازلها، والتعامل معها بحرفية ونصوصية شديدة، وتحامل وعنصرية، ورميها بعيدًا في واد غير الذي درجت في سياقه.

والحق أن الأستاذ الكاتب كان يمكن له أن ينحي ما نحى، لو كانت الألفاظ صريحة واضحة، كأن يقول عمرو لعمر: هناك أموال في مصر ستزيد من ثروة أمير المؤمنين، وإقطاعيات تنمي أملاك أمير المؤمنين، لكن ذلك لم يكن أبدًا.

ثم تأتي الضربة التي عرت شبهة صاحبنا من الأقباط أنفسهم فقد جاء في تاريخ الأنبا يوحنا، أسقف شبشير، الذي عاصر الفتح الإسلامى: «إن عمر بن الخطاب لم يأخذ شيئاً من أموال الكنائس، ولم يرتكب عملاً من أعمال السلب والنهب، وأسبغ عليها الحماية طوال مدة حكمه».

لكن دعونا جميعا أنا وأنتم من كل هذا، ليحملكم قلمي إلى صورة أخرى تنظروا إليها وتتمعنوا من هيئتها، وهي صورة المرقعة التي يرتديها ملك الدنيا عمر بن الخطاب الذي سحقت جيوشه المؤمنة كسرى وقيصر، فهل ينفع أو يستقيم أن يرتدي الطامعون مرقعات، وثيابا باليات؟

إن المرقعة تهدم كل شبهة تثبت أن فتح المسلمين كان للجشع والطمع، وتقر أنه قام لله وبالله وحده لا شريك له.

❋ ❋ ❋ ❋

كذب لا يمكن السكوت عليه

مرة أخرى يأتي الحديث عن خطورة الفيس بوك، وشاشته التي تعرض للمسلمين وأجيال أمتنا، صفحات ومعلومات لم يكن أبدًا لهم أن يعلموها عن تراثهم وأمتهم؛ لأن أغلبهم لا يقرأ وإن قرأ لا يفهم، وأشك أنه لو فهم يستوعب.

ومن هنا كانت فرصة ذهبية، للمغرضين والحاقدين والمتآمرين على أمتنا وتراثها وهويتها، فرصة لا تقدر بثمن وهم يخاطبون الأجيال بالتراث وكتبه، فيما يشيعون من إفك وأراجيف، حتى إذا قرأت اسم الطبري أو الواقدي أو الأصفهاني، يصاب عقلك بالشلل، وتقف وتتسمر في مكانك وتنتابك صدمة في أعماقك، وتوقن أنك نسيب أمة تحمل العار والخزي والبشاعة والدموية والوحشية، وليت هذه الصفات والأحداث التي يتم روايتها، مما تلحق أجيالا أو تاريخا متأخرًا من حقب أمتنا.

ولكنها في جناية هؤلاء، وفي إقدامهم الوقح، يضربون في صلب الإسلام، فلم يسلم منها السلف المُعظم أنفسهم، الذين كانوا أعدل من عرفت الدنيا من الناس ومن دعاة الإصلاح وفرسانه وأعظمهم وأرقاهم.

كنا قد ذكرنا أن تاريخ الطبري من الكتب التي تسببت في تشويه صورة أمتنا بما أدخل فيه كاتبه من مرويات ساقطة ومكذوبة، ولكن بعض السطحيين هاجوا علينا وشوشواعلى مقاصدنا من الكلام، وتخيلوا جهالةً أنني أهاجم الطبري، رغم إشارتي وتنبيهي بأنه كان من أئمة ديننا العظام، وكان لكتابه منهجه الذي يعذر فيه، وهؤلاء الذين عارضونا جهلا وإصرارا منهم أن يشوشوا على مقصدنا الذي كنا نريد التركيز عليه، إنما هم في حقيقتهم يدفعون الناس دفعًا لتصديق ما ذكره المتغربون من أكاذيب حول جيل الصحابة العظام.

ونفس المأساة اليوم تتكرر، حينما ينصدم القارئ باسم عريق، لا يعلم عنه إلا أنه كتاب من كتب التراث والتاريخ يرصد حياة المسلمين، وما هو إلا كتاب إفك وزور وتزييف لحياة أنبل من عرفت هذه الدنيا.

أرسل لي أحد الأصدقاء هذا المنشور الكاذب، الذي يطفح إفكا وزيفًا، ويستمد زوره من الافتراء والتضليل، ويبدو أن كتابه أو ناقليه مسيحيون حقدة ممن فطنوا لجهل الأمة، وعزوف شبابها عن القراءة والمعرفة، فروجوا للباطل، حتى يشككوا الناس في حضارتهم وتاريخهم، وينسبوا إليهم كل سُبة ومذمة، يقول المنشور: إن سيدنا خالد بن الوليد قتل في فتح دمشق، أكثر من أربعين ألفًا من الأطفال والنساء والرجال، ودمر كل شيء، وقال

قولته: "لن أرفع عنهم السيف حتى أفنيهم عن آخرهم" وفي نهاية الكلام الذي يتكون من سطور بسيطة ملؤها السم الزعاف، حتى تكون رسالة قصيرة وسريعة وهادفة ومؤثرة، يكتب الناقل الأفاك مراجعة وعلى رأسها كتاب (الواقدي في فتوح الشام) وهكذا لا يقرأ القارئ شيئًا من المكتوب إلا ويصاب بالخلل أمام اسم الواقدي، الذي لا يعرف عنه أي شيء، ولو أنه بحث وسأل، لعرف أنه من الشيعة الكذابين الذين كانوا يمارسون التقية، وكذَّبه علماء الحديث واتهموه بالوضع، ورواية المناكير عن المجهولين، ومن هؤلاء العلماء: الشافعي، وأحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي، وأبو داود، والترمذي – رضي الله عنهم .-

وثبت أنه روى أخبارًا شيعية تتفق مع مذهبه، منها أنه روى أن عليا كان من معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم كما كانت العصا من معجزات موسى عليه السلام، كما أن ابن النديم الشيعي – صاحب الفهرست – كشف لنا أمره دون التباس، فقال عنه: كان يتشيع حسن المذهب، يلزم التقية، وكان في مروياته الدفينة، يظهر حقده ضد الصحابة.

وقال عنه أحد الباحثين: "وله كتب كثيرة في المغازي والسيّر والطبقات والفقه، لكنه لم يكن أمينًا، فهو ليس بثقة ومتهم بالكذب، وكان حاطب ليل في تأليفه لكتبه، خلّط فيها بين الغث والسمين، والخرز بالدر

الثمين، لذا طرحه العلماء ولم يحتجوا به، ومن كانت تلك حالته، فكتبه ليس لها قيمة علمية كبيرة، ولا يمكن أن نثق فيها، ولا نأخذ منها إلا بحذر بعد تحقيقها وتمحيصها، ومن كانت تلك هي أخلاقه ومنهجيته، فمن الواضح جدًا أنه سيملأ كتبه بالأكاذيب قدر المستطاع، لذا قال الإمام الشافعي عن مصنفاته: كتب الواقدي كذب، وقال عنه الحافظ علي بن المديني: كتب الواقدي عن الكذاب إبراهيم بن يحيى، وبذلك اجتمعت في كتبه أكاذيبه ومفتريات إبراهيم بن يحيى، وأباطيل المجاهيل الذين روى عنهم، لتصبح كتبه في حالة غير مقبولة، ويصدق عليها قول الشافعي الآنف الذكر".

هذا هو الواقدي الذي صور خالدًا بأنه دراكولا المسلمين، ونسب إليه المحرمات في دين الإسلام، والتي لو حققها جيش المسلمين فعلا في قتل النساء والأطفال لأخذهم خليفة المسلمين برقابهم وجندهم على أعواد المشانق، فلا يعرف هذا الجرم أبدًا في الإسلام ولا حروبه، التي عرفت الدنيا فيها معنى الرحمة والرفق والإنسانية.

ثم يقول هذا الكاذب الأفاك ناسبًا كلامه لابن كثير في البداية والنهاية، وهو غير صحيح وغير موجود، أن روم المدينة أي دمشق، حاولوا التفاوض مع خالد طالبين منه وقف المذبحة وعودة العرب مقابل المال

والطعام، فما كان من خالد إلا أن قال له: ما أخرجنا إليكم الجهد والجوع، وإنما نحن قوم نشرب الدماء، وبلغنا أنه لا أطيب من دم الروم فجئنا لذلك.

وهو كذب وتدليس، فإن معركة اليرموك هي المعركة التي قال فيها خالد هذا الكلام، ولم يقله إلا ردًا على سفاهة قائد الروم (ماهان) وسخريته من المسلمين حينما قال: قد علمنا أنه لم يخرجكم غير الجهد والجوع، وإن شئت أعطيت كل واحد منكم عشرة دنانير وكسوة وطعامًا وترجعون إلى بلادكم وفي العام القادم أبعث إليكم بمثلها"

وهو كلام مستفز ساخر يهين كرامة المسلمين ورسالتهم وسبب مبعثهم، وكان لابد من الرد عليه بطريقة وأسلوب يحمل السخرية والتهديد والوعيد.

فلماذا إذن هذا الزور الذي لا يقال إلا لغرض خبيث معلوم ومفضوح؟ ومن أين جاء بهذا الرقم الذي يتباكون عليه ومن أي مرجع نقلوه؟ ولم أجد لهم نقلا إلا من كتب الصليبيين الحاقدين، ولم يذكره مرجع واحد من مراجع المسلمين، لأنه لم يكن له وجود أصلا ولا يستسيغه العقل، حينما تعلم أن المسلمين في هذا الفتح كانوا ٨٠٠٠ في مواجهة أكثر من ٨٠.٠٠٠ من الروم.

كما يدهشك هذا الخطاب الإنساني والعاطفي الذي سلكه الناقل الكاذب، حين يصور لك الروم المسيحيين الذين حاصرهم المسلمون وهم سكان المدينة الأبرياء وما كانوا إلا جنودًا لروما فجرة فسقة ظلمة، يذيقون الناس الظلم والقهر ألوانًا وأشكالا حتى جاء سيف الله وحرر رقاب الناس من ظلمهم وطغيانهم.

* * * *

جيش الأطفال وجيش العبيد؟

في عام ١٢١٢ ظهرت في فرنسا حملة قادها طفل تربى في دير متزمت يدعى ستايفان، ادّعى أنه مرسول الرب لتحرير القدس من أيدي المسلمين، وكان على صغر سنه فصيحًا جريئًا ادّعى أن الله يئس من نجاح الملوك والفرسان في تحرير القدس، فأوكل هذه المهمة إلى أطفاله المخلصين .

وخلال أشهر قليلة، انضم إلى معسكره أكثر من ٣٠ ألف طفل فرنسي سلمهم آباؤهم طواعية طمعًا في رضا الرب، وحين وصلوا إلى ميناء مرسيليا جنوبًا استقبلهم الناس بكثير من الاحترام والتبجيل، غير أن أصحاب المراكب رفضوا نقلهم إلى فلسطين خوفًا من الأسر أو المواجهة مع المسلمين، ولكنهم سرعان ما اتفقوا سرًا على نقلهم مجانًا، وبيعهم كعبيد في مصر وشمال أفريقيا، أو كفتيان متعة للمجاهدين الصليبيين في المناطق المستقرة في الشام.

وبعد انتهاء دعوة ستايفان في فرنسا، ظهر في ألمانيا طفل آخر يدعى نكولاس ادّعى تكليفه من قبل الرهبان للقيام بنفس المهمة، وبدافع من المشاعر الدينية المتأججة لقيت دعوته ترحيبًا كبيرًا في المقاطعات الألمانية، وتمكن من جمع ٤٠ ألف طفل حوله (يعد حتى اليوم أضخم جيش للأطفال في التاريخ).. وكانت خطة نكولاس تقضي بقطع جبال الألب ودخول إيطاليا من شمالها، ثم زيارة الفاتيكان ونيل بركة البابا، ثم التحرك بالسفن

نحو فلسطين، غير أن عددًا كبيرًا من الأطفال ماتوا من الجوع والبرد، أثناء قطعهم جبال الألب الشاهقة، وحين هبطوا في شمال إيطاليا، فوجئ بهم السكان فرفضوا إيواءهم وإطعامهم، فانخفض عدد الجيش إلى النصف، وزاد الطين بلة، رفض البابا استقبالهم، الأمر الذي فسره الإيطاليون كرفض سماوي، فرفضوا التعامل معهم وبدأوا بمطاردتهم في كل مكان، وحين وصلوا في النهاية إلى الموانئ الإيطالية في الجنوب، لم يكن قد تبقى منهم غير ٣٠٠٠ طفل، نقلوا بدورهم إلى أسواق النخاسة في المشرق العربي، حيث بيعوا كعبيد أو فتيان متعة.

وهذه كانت فقط أكبر حملتين من أطفال أوروبا، تلتها حملات أصغر انطلقت من إسبانيا وإنكلترا وإيطاليا.

ويعلق بعض الكتاب على هذه الأنباء، أن ما حدث كان جريمة كبرى في حق الإنسانية، حينما يحشر هؤلاء الأطفال ويزج بهم في الحروب، التي تقضي على طفولتهم وتحملهم مالا يطيقون، وقد كان الخطاب الديني المتطرف، هو المحفز الأكبر والداعي إلى هذه الجريمة المنكرة.

وفي تاريخنا الإسلامي كان الأطفال على مستوى الحدث والقضية، فلم يكونوا في معزل عن ملاحم أمتهم وقضاياها، حينما كانوا يعايشونها ويتفاعلون معها، فقد كان الصبية يتسابقون للمشاركة في الجهاد والغزو مع

الرسول صلى الله عليه وسلم، لكنه وهو الرحمة المهداة يردهم لصغر سنهم، ويراعي طفولتهم المهيضة، فيرجعون وهم منفطرون بالبكاء.

وحينما رجع خالد من مؤتة منسحبًا ومحافظا على جيش المسلمين، كان الأطفال أول من تلقاه وجيشه يعيرونهم بقولهم: يا فرار!

وقف الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم يردهم عن ذلك ويقول: بل هم الكرار إن شاء الله.

لقد بدأت طفولة صلاح الدين الأيوبي في العراق وكان يخرج مع الصبية لكي يلعب، وفي أحد الأيام مر به أبوه وهو يلعب فرفعه للأعلى وقال له: "ما تزوجت أمك وما أنجبتك لكي تلعب مع الصبية، ولكن تزوجت أمك وأنجبتك لكي تحرر المسجد الأقصى" وأسقط به للأرض، فتألّم صلاح الدين، فقال له أباه: "ما كان لمحرر الأقصى أن يصرخ"، فبذلك زرع أبوه لديه الهدف النبيل لكي يكبر ويحققه، وفي هذه المرحلة خرج إلى مصر، ليكون بجانب عنه أسد الدين الذي كان وزيرًا، وكان يتصف صلاح الدين بحسن التدبير والقدرة على معالجة الأمور بسياسة، لذلك كان يُسير كل أمور الدولة، وبعد وفاة أسد الدين استلم الأمور ليصير السلطان صلاح الدين، والذي كان هدفه محاربة الصليبين، وتحرير بلاد المسلمين من قبضتهم.

ولكن دعك من كل هذا وذاك، فما حز في نفسي إلا سؤال مر وجهه إليها عقلي، وهو: علام نربي أطفالنا اليوم؟ وهل يحمل رجال اليوم ما كان يموج بهمم أطفال الأمس؟

أما جيش العبيد أو ما عرف في تاريخنا الاسلامي بثورة العبيد، فقد كانت في زمن الخليفة العباسي المعتمد على الله، حيث ظهر في البصرة وواسط رجل فارسي الأصل اسمه علي بن محمد، وكان يتصف بالذكاء والطموح والفصاحة والبلاغة، حاول بشتى الطرق أن يسعى المجد، ويتقلد الرياسة والزعامة التي تتوق إليها نفسه، ويجنح إليها هواه، ولكنه لم يستطع، ادعى كذبًا أنه علوي وسليل البيت النبوي والنسب الشريف، لكن لم يبال أحد بذلك لانتشار العديد من أهل البيت في هذه المناطق، ثم قام فجهر بعقائد الخوارج، وانتظر أن يكون له أتباع وأنصار فلم يجد، ثم قام فادعى أنه يعلم الغيب، وأنه تظهر له آيات يطلع منها على ضمائر أصحابه.

ولكن كل ذلك لم ينفعه ولم يثمر معه في شيء.. فماذا يفعل وأين يسلك حتى يكون زعيمًا وقائدًا تدين له الدنيا ويجد فيها وعلى أرضها ملكه وعرشه؟!

نظر حوله فوجد تلك الطبقة الكادحة المنهوكة المظلومة (الزنوج) المسترقين العبيد، فادعى أنه رسول العناية

الإلهيـة لتحريـرهم مـن الـرق، وأنهـم يجـب أن يكونـوا أتباعًـا لـه، ووعــدهم ومنــاهم حتــى وصــل أتباعــه مــنهم إلى (١٥.٠٠٠) غــلام زنجــي، وأخــد يرســم لهــم مســتقبلهم ويــوجههم للجهــاد والقتــال حتــى ينــالوا ملكهــم وحــريتهم، فاســتجابوا لــه وســاروا في تمــردهم فــيما عــرف بثــورة الــزنج، التــي كانــت مــدمرة مهلكــة أكلــت الأخضــر واليــابس، وقضــت عــلى ألــوف البشــر، كــانوا يحرقــون المــدن ويبيــدون الــزرع، واســتولوا عــلى كثــير مــن المــدن، وكــانوا يحرقــون بعضــها ويــذبحون أكثــر ســكانها، وينهبــون مــا يجــدون في طــريقهم بــلا رحمــة أو شــفقة، حتــى عــم الخــوف وانتشــر الرعــب، وأضــحت عاصــمة الخلافــة تترقــب في تــوجس زحفهم إليها.

وظلت هذه الثورة قائمة فائرة حتى جمع الخليفة جيوشه وجرت معارك رهيبة، انتصر فيها الجيش العباسي فأباد الزنوج قتلا وأسرًا، وقتل صاحبهم المهووس ودمرت مدينته المختارة التي بنى بها قلعة واتخذها عاصمة له.

استمرت هذه الثورة (١٤) عاما من (٢٥٥-٢٧٠هـ) وسقط فيها وبسببها مليونان ونصف، حسب رواية ابن طباطبا.. حتى قيض الله للعالم

الإسلامي أن ينجو من هذه الثورة الدامية التي قادها هؤلاء الرعاع، وقائدهم المجنون.

* * * *

رسالة وحقا كانت رسالة

من كان يتصور أن تكون المرأة بهذه القوة؟

من كان يتصور أن تفوق قوتها قوة الجيوش العاتية، وبطش الأسلحة الفتاكة؟!

من كان يتصور أن تكون الأنثى مهيضة الجناح، هي الصخرة التي ستتحطم عليها أعتى إمبراطورية عرفتها الأرض وأقساهم وأعنفهم؟

لقد أحدثت هذه الأُمة بجيوشها المتوحشة زلزالا مخيفًا في الدنيا مازلنا إلى اليوم وبعد مرور مئات السنين نروي ونتذاكر من وحشيتهم القاسية، مالم نسمع به أو نعرفه من قبل، لكننا نقول: إن امرأة واحدة بما دبرت كانت أفتك زلزال دك حصونهم، ومحى عهدهم، وشتت سيرتهم.

وهكذا المرأة التي تقف أمامك، لا تستهين بها أبدًا، إذ يمكن لها أن تفعل ما لا يتصوره خيالك من عجائب الدهر وغرائب المعجزات .

لقد زحف المغول نحو الشرق يريدون تدمير العالم الإسلامي، انحدروا كالسيل الجارف لا تستطيع قوة أن تقف أمامهم حتى سقطت بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية، وتسامعت الدنيا بما فعلوه في البلاد والعباد من وحشية منقطعة النظير، وبينما يعد قائدهم الفاجر هولاكو عدته، للزحف على

مصر جاءته الأنباء بحدوث فتن مزرية بين أبناء القبيلة الذهبية التي تحكم المغول، فاضطر إلى الرجوع مخلفًا جيشه تحت قيادة مساعده كتبغا، بعد أن أخذ منه جزءًا كبيرًا، وأدى هذا الانقسام إلى إضعاف الجيش ومن ثم هزيمته في عين جالوت عام ٦٥٨هـ

لقد كانت هذه الفتن هي السبب المباشر لهزيمة المغول، والقضاء على دولتهم، وانهيار امبراطوريتهم، حينما انقسم جيشهم، فهل يا ترى كانت هذه الفتن مدبرة لهذا الغرض، أم أن القدر قد أتى بها دون تدبير وتخطيط؟!

لقد حدثت هذه الخلافات بتدبير من (بركة خان) فمن هو يا ترى هذا الشخص الذي استطاع أن يحدث هذا الشرخ الغائر والصدع النافذ في الامبراطورية الكبيرة، وتسبب في ضياعها وهزيمتها وذهاب قوتها؟ وما مصلحته في ذلك؟

إنه السلطان بركة خان بن جوجي بن جنكيز خان، وهو ابن عم هولاكو، أو مغول الشمال، ويعد بركة خان أحد سبعة أبناء لجوجي ابن جانكيز خان، وهم: "باتو، أوردا، شوبان، بركة، جمتاي، بركجار، توقاتيمر"، وكان الابن الأكبر باتو قد ورث منصب أبيه، وأصبح زعيمًا للقبيلة الذهبية، والتي تعد أولى قبائل التتار إسلامًا، وأكثرها تعاطفًا وتأدبًا مع المسلمين ومن بعده أخيه بركة خان.

التقى بركة بأحد علماء المسلمين وهو "نجم الدين مختار الزاهدي" وأخذ يستفسر منه عن الإسلام وهو يجيبه، وطلب منه كتابة رسالة تبين ما هو الإسلام، وقد قام الزاهدي بهذا الدور وهنا تم إسلامه عن رغبه سابقة عام ٦٥٢ وكان صدمة كبيرة لأبناء عمومته وباقي أفراد البيت المغولي، وبدأ الدعاة يدخلون بالقبيلة الذهبية يشرحون تعاليم الإسلام حتى انتشر بينهم بقوة، أسلم بركة خان، في الوقت الذي كان فيه هولاكو يقتل المسلمين ويدمر أراضيهم، ويزهق أرواحهم، لكنه لم يستسلم وأخذ يدبر أمره في الخفاء قدر المستطاع.

لقد غضب أبناء أوغطاي من أخيه باتو حينما أظهر عطفًا وأدبًا ولطفًا في تعامله مع المسلمين، ونشأت بينهما الخلافات، وبعد وفاة باتو وصلت الرئاسة إلى بركة خان في سنة ٦٥٣ هـ قبل سقوط بغداد بأربع سنوات، فحاول وقف الزحف المغولي على العالم الإسلامي، بالتوحد مع خلفاء الدولة العباسية في العراق، ودولة المماليك في مصر والشام، ولم يتمكن من منع سقوط بغداد، إلا أنه نجح في إحداث فتنة كبيرة في صفوف المغول وانقسام حاد بين قبائلهم، مما ترتب عليه ضعف قوتهم وانكسار شوكتهم.

كما قام بركة بتوطيد العلاقات الدبلوماسية مع دولة المماليك، وزوج ابنته من السلطان الظاهر بيبرس، وبايع الخليفة العباسي، وصك العملة باسمه، واستمر في حروبه مع هولاكو حتى وفاته في ٦٦٥ هـ.

ويبقى السؤال المهم بعد نقل هذه المرويات من صفحات الباحثين، كيف ومتى وأين تسرب الإسلام إلى هؤلاء؟ وعن أي طريق اكتسبوا تعاطفهم مع هذا الدين وأهله؟ وكيف كان هذا التعاطف هو البداية لانهيار امبراطورية المغول، وتفكك جموعهم؟!

لقد كان للإسلام أثره في نفوسهم، بسبب زواج أبيهم جوجي من الأميرة (رسالة بنت علاء الدين بن خوارزم شاه) آخر سلاطين الدولة الخوارزمية الذين تم قتلهم بعد دخول المغول، فوقَعَتْ الأميرة رسالة في الأسر مع أسرتها، وقرر جوجي أن يتزوجها بالإكراه، فعاشت مع أسرته، وكان لها تأثيرها الكبير في نفوس أبنائه؛ باتو وبركة خان بالخصوص، ومع كونها أسيرة في قصر أعدائها إلا أنها تمسكت بدينها وعملت على نشر قيمه والدعوة إليه.

ولمّا رأى أولاد جوجي ذلك، وقع في نفوسهم حُب الإسلام والمسلمين، فكان باتو عطوفًا على المسلمين؛ رغم كونه لم يعتنق الإسلام، وفي

الوقت الذي كانت المذابح تفتك بالعالم الإسلامي، والعالم كله يرتعد من ذكر التتار، كانت رسالة تقوم بدورها الديني العظيم .

لقد أحدثت هذه المرأة بفضل تربيتها، تغييرًا في أخلاق قادة المستقبل، وانقلابًا في طباعهم وعواطفهم، وكان لها إنجازها المدهش في هدم هذه الدولة الدموية الغاشمة، فقللت معاناة المسلمين، وجبلت الجيل الجديد على خلق الرحمة، فأثمرت غايتها في هذا المحيط الوثني الذي لا يعترف إلا بالقوة والبطش والقسوة.

ولله در القائل:

(وحقًا إن لله جنودًا لم تروها، فمن كان يفكر في أن سبيةً قد أُخِذت في الحرب قهرًا فكان أخذها انتهاكًا لحرمات المسلمين وأعراضهم، هي نفسها التي ستفتح بابًا عجزت سيوف الدول والرجال أن تفتحه؟)

* * * *

المرأة التي أضاعت دولة

أم الخليفة، زوجة الخليفة، أخت الخليفة، جارية الخليفة.

يالها من أسماء أو ألقاب كان لها تأثيرها الثقيل، في مستقبل الحياة السياسية التي مرت بها كثير من دول الإسلام.

كانت المرأة منهن تجمع كيد الدنيا في قبضتها حتى يتولى ولدها أو أخوها أو زوجها الحكم، كانت تكيد وتتآمر وترشو وتسلط وتقتل، وتتحول إلى كابوس مزعج أو سرطان ينخر في مصير الأمة لتبلغ مأربها وشهوتها.

ولك أن تعرف أن امرأة واحدة، كان لها الفضل والسبب في ضياع الحكم الأموي من الأندلس، وخلوصه لغير الأمويين، واستهلال عصر ملوك الطوائف، الذي أوشك معه أن يهوي ملك الإسلام في الاندلس، لولا أن قيض الله للأمة بطلها المغوار سيد المسلمين يوسف بن تاشفين.

كان (المنصور بن أبي عامر) شابًا طموحًا، رحل إلى قرطبة والتحق بجامعتها، ولما انتهى من دراسته فتح دكانًا بجوار قصر الخلافة، وكان يكتب فيه للناس شكاواهم وعقودهم، واتصل به في هذا الدكان بعض خدم القصر، والذي اتصل عن طريقهم بالسيدة الأولى والمرأة القوية؛ (صبح البشكنجية) زوجة الخليفة الحكم وأم الخليفة الصغير التي أعجبت بمهاراته،

وأوكلت إليه القيام ببعض أمورها، فأظهر حذقًا ومهارة فيما وكل إليه، فأوصت الخليفة به فولاه قضاء بعض النواحي، وبدأ نجمه يسطع في الظهور حتى وصل إلى كرسي الوزارة، الذي أظهر فيه كفاءة لا نظير لها.

كانت صبح جارية أندلسية واسمها إيرورا، وكانت جميلة وكان ابن أبي عامر شابًا وسيمًا ذكيًا، ويقال إنها وقعت في حبه واغتنم هو هذا، فأظهر لها حبه، وغمرها بالهدايا ومعسول الكلام، وصار هو وكيل أعمالها هي وولدها، ولما مات الخليفة كانت صبح هي الوصية على ولدها، وتعتمد في كل شيء على ابن أبي عامر، أي أنه صار كل شيء في الدولة، وصار بمقام الخليفة.

ومن هذا المنصب بدأ المنصور يحيك مؤامرات عديدة، وتدبيرات شيطانية، حتى يثبت أقدامه ويرضي طموحه، الذي يجنح إلى أكثر من الوزارة، فحينما مات الخليفة الحكم، اتجه المناخ العام للبيعة لأخيه المغيرة أو عمه، ولكن ابن أبي عامر خنق المغيرة بتحريض السيدة صبح، حتى خلا الجو لابنها هشام، وتم إعلان البيعة له وهو ابن عشر سنوات.

ثم تآمر على الحاجب (جعفر المصحفي) و(غالب بن عبد الرحمن) قائد الجيش، فأوقع بينهما حين تزوج بنت غالب، واتهم المصحفي بالسرقة والخيانة وحكم عليه بالسجن، وظل فيه حتى مات، وتولى منصبه بعد سجنه، كما دبر المكيدة ضد صِهره حتى قتله، وقدم البربر ووثق فيهم، وأبعد العرب

ونحاهم، ثم كان هذا التصرف الذي وصفه الدكتور شلبي في موسوعته التاريخية: بأنه التصرف المدمر، والذي قام به ابن أبي عامر حتى تخلو له ساحة الحكم، وهو القضاء على زعامات الأمويين الموجودين بالأندلس، إما بقتلهم أو إبعادهم إلى الشمال الأفريقي، واتخذ لذلك حجة هي تأمين الخليفة من أولئك المتطلعين للسلطة، الذين اتهمهم بمؤامرات لم يقوموا بها، وكان من نتيجة هذا العمل الظالم، أنه بعد خلع هشام بن عبد الرحمن الناصر سنة ٣٩٩هـ، لم يكن في الساحة من يملأ الفراغ من الأمويين، وانتهت دولتهم وضاعت خلافتهم، وظهر بعدها عصر ملوك الطوائف، الذي كان عصر الخيانة والضعف والضياع.

وكل هذا بسبب امرأة واحدة، فتحت الميدان لهذا الطماع النهم المسعور، ليقتل ويتآمر وينكل ويظلم ليرضي أطماعه وشهواته وتشبثه بالملك.

ورغم هذه السيرة السيئة من التآمر والغدر، إلا أن صفحة أخرى أو سيرة أخرى تحكي غير ذلك أو تنقل صورة بسلوك آخر، فقد كان في حكمه بارعًا سديدا وبطلا في قتال النصارى، حين خاض ضدهم ٥٤ معركة لم يهزم فيها أبدًا، ووصل بعساكره إلى مناطق وحدود لم يصلها غيره في أوروبا، حتى أنه وصل إلى ليون في فرنسا، قال المؤرخ الأندلسي ابن عذاري في كتابه «البيان

المغرب في أخبار الأندلس والمغرب»: «غزا محمد بن أبي عامر في حياته أربعًا وخمسين غزوة، لم يُهزم أبدًا في واحدة منها».

وروى «ابن عذاري» عن نجدته للمسلمين، أنه بلغه وجود أسيرات مسلمات لدى جارسيا سانشيز الثاني ملك نافارا، رغم أنه كانت بينهما معاهدة تنص على ألا يستبقي جارسيا لديه أسرى من المسلمين، فأقسم أن يجتاح أرضه لنكثه بالعهد، ولما خرج المنصور بجيشه، وبلغ غارسيا خروجه، أسرعت رسل جارسيا تستفسر عن سبب الغزو، فأعلموهم بخبر الأسيرات المسلمات، فردّهن «جارسيا» معتذرًا بعدم علمه بهن، وبأنه هدم الكنيسة التي كانت تحتجزهن كاعتذار منه على ذلك، فقبل منه المنصور ذلك وعاد بالأسيرات.

ويقول الدكتور محمد عبد الله عنان، في كتابه «دولة الإسلام في الأندلس»: «كان مقتديًا بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَلاَ يَجْتَمِعُ غُبَارٌ في سَبِيلِ اللهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ. فكان من عادته في جهاده وبعد كل معركة أن ينفض ثوبه، ويأخذ ما يخرج منه من غبار ويضعه في قارورة، ثم أمر في نهاية حياته أن تُدفن معه هذه القارورة؛ وذلك حتى تشهد له يوم القيامة بجهاده ضد النصارى».

ويقول «ابن الاثير»: «كان المنصور بن أبي عامر عالمًا، محبًا للعلماء، يكثر مجالستهم ويناظرهم، وأكثر العلماء ذكر مناقبه، وصنفوا لها تصانيف كثيرة، وكان حسن الاعتقاد والسيرة عادلاً، وكانت أيامه أعيادًا لنضارتها، وأمن الناس فيها».

ويبقى الحق، فمهما كان بطلا مغوارًا فاتحًا منتصرًا، فإن التاريخ يعرفه كما ذكرنا بوجه آخر وهو الخائن الغادر القاتل المتآمر.

* * * *

التحول الخطير

شيء عجيب حينما يتحول الإنسان وتتغير سِماته التي جُبل عليها، وهذا التحول يعني في المقام الأول أنه استبدل إنسانًا بإنسان آخر، وأدخل في جوفه روحًا غير الروح التي كانت موجودة فيه، وما أسعده لو كان التغيير للفضائل والمكارم، وما أشأمه لو كانت للخسران والرذائل.

بعض الناس يتعرضون في حياتهم لمحن تُغير من نظرتهم للحياة فتقلب طريقتهم وأسلوبهم وتفكيرهم وعلائقهم، وبعضهم لا يتعرض لمحنة، وإنما تعتريه همة في نفسه بأنه لا يجب أن يكون على ما هو عليه، وآخرون يقلدون الزعماء فيدرسون سيرتهم ويستحضرون أرواحهم في أجسادهم، فتسيطر على حركاتهم وسكناتهم.

وهناك من تداهمهم الفتن بصنوفها المختلفة، فيقعون في أسرها ولا يفلتون من غواياتها، وبعد أن كانوا آمنين مطمئنين منها، تلفحهم بنارها فَيلِغون فيها، ولا ينجو من سُعارها إلا أولو العزم من الرجال.

والشهوات أعاذنا الله، عواصف هادرة، تزلزل كيان النفس وتهد ثباتها، وإذا لم يقابلها إيمان عصِي، فإن شلالها الجارف يحتضن الإنسان لعالم

الضياع، فما بين شهوات؛ المال، المرأة، الملك، يتقلب الناس يُمتحنون ويُبتلون.

نرى كثيرًا من الضعفاء صاروا أقوياء، ونرى كذلك أقوياء صاروا ضعفاء، وهناك أغنياء صاروا فقراء وفقراء صاروا أغنياء، فالأيام دول ولا تستقر الدنيا على حال، ولكن لا ضير أن تتغير المظاهر فيتغير مأكلك وملبسك ومسكنك، فهذه كلها عوارض لا قيمة لها، أما أن تتغير نفسك ويتحول قلبك، ويتبدل تفكيرك وسلوكك، وتنقلب دنياك من حال إلى حال، فهذا هو التحول الخطير الذي يُثير العجب والغرابة، ويستدعي البحث والدراسة.

إن التحول في حياة الإنسان شيء وارد، ويبدو أنه كامن في الطبائع البشرية، والإنسان رهين لحظة وموقف أو نزوة تقلب صورة حياته وألوانها، ولقد قيل:

ما سمي القلب إلا من تقلبه .:. فاحذر على القلب من قلب وتحويل

وقال آخر:

ما بين طرفة عين وانتباهتها .:. يُبدل المرء من حالٍ إلى حالِ

والأمثلة كثيرة من هؤلاء الذين تغيرت حياتهم، والتاريخ مليء بذكر من تبدلت دنياهم، وتحولت مواقفهم، فهذا قارون الذي يقص القرآن بطره

وكفرانه لنعمة الله، ويحكي عن كنوزه العظيمة، التي ينوء بحمل مفتاحها العصبة أولو القوة، إلى أن خسف الله به وأمر الأرض فابتلعته وثرواته، ولكن، هل سألت نفسك يوما من هو قارون؟

أو حاولت البحث عن حياته قبل أن يَكفر نعمة الله عليه؟

إن الأسفار تُخبرنا عن قارون، وكيف كان قبل الثروة؟ كان شخصًا آخر غير الذي نعرفه، وغير الذي قص علينا القرآن كفرانه، ذكر عنه أنه كان من أعبد بني إسرائيل، وكانت له المكانة الدينية في قومه بعد موسي وهارون، وكان من أقرأ الناس للتوراة حتى أنه سمي المنور، لحسن صوته بالتوراة، بل كان من السبعين الذين اختارهم موسى للقاء الله، وهم من الصفوة في قومه، ووقع قارون في فتنة المال فطغى وتكبر، وحدث في حياته ذلك التحول الخطير الذي قاده للخسف والهلاك.

لقد بغى على قومِه وتكبر بما أُوتي من الأموال العظيمة المُطغية، أعطاه الله من كنوز الأمْوال شيئًا كثيرًا ما إنَّ مفاتحه لتنوءُ بالعصبة أولي القوَّة، - والعصبة من العشَرة إلى التِّسعة إلى السَّبعة- أي: إنَّ مفاتح خزائن أمواله لتثقل الجماعة القويَّة عن حَمْلِها؛ هذا في المفاتيح، فما ظنُّك بالخزائن؟ ونصحه الواعظون العقلاء من قومُه:

لا تفرحْ بهذه الدُّنيا العظيمة وتفتخِر بها؛ فإنَّ الله لا يحبُّ الفرحين بها، ﴿وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، أنفِق لآخرتِك، واستمتِع بدُنياك، وأحسِنْ إلى عباد الله، ﴿وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالتكبُّر والعمل بمعاصي الله، وجاء رده عليهم قاطعاً ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾؛ أي: حصلت هذه الأموال بكسْبي وجهدي ومعرفتي وعلمي، وكانت العاقبة وكان المآل الوخيم، الذي جعل قارون عبرة للمعتبرين تُتلى قصته في كتاب الله عبر الأزمان والأجيال.

ولعمري ليس في قصته أكثر عجبًا من تحول حياته، وتغير حاله، وتبدل طباعه، فبعد أن كان من العُباد الزهاد قراء التوراة، إلى الجاحد المتكبر الذي يغضب الله عليه ويخسف به الأرض.

وفي صفحات تاريخنا الإسلامي شخصية تستحق وضعها في هذا المقام، وكم يحيرك تغيرها وانقلاب أمرها، وتبدل صورتها، ولا تملك حيال سيرتها إلا أن تندهش لهذه النفوس التي تنسى فتنقلب لضد ما كانت عليه.

والشخصية التي نتحدث عنها هي من عجائب التاريخ الإسلامي، ومن أصحاب البصمة فيه، ومن المتبدلين من حال إلى حال، أنه عبد الملك بن مروان الذي قال فيه الشعبي:"ما جالست أحدًا إلا وجدت لي الفضل عليه،

إلا عبد الملك بن مروان ؛ فإني ما ذاكرته حديثاً إلا زادني فيه، ولا شعرا إلا زادني فيه"

وقال ابن كثير: "كان عبد الملك قبل الخلافة من العُباد الزهاد الفقهاء، الملازمين للمسجد، التالين للقرآن"

وقال عنه نافع: "لقد رأيت المدينة، وما فيها شاب أشد تشميراً، ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان"

وقال الأعمش عن أبي الزناد: "كان فقهاء المدينة أربعة: سعيد بن المسيب، وعروة، وقبيصة بن ذؤيب، وعبد الملك بن مروان، قبل أن يدخل في الإمارة".

وروى البيهقي أن عبد الملك وقع منه فلس في بئر قذرة، فاكترى عليه بثلاثة عشر دينارا حتى أخرجه منها، فقيل له في ذلك، فقال: إنه كان عليه اسم الله عز وجل.

وقال ثعلب عن ابن الأعرابي: "لما سُلم على عبد الملك بالخلافة، كان في حِجرهِ مصحف، فأطبقه، وقال: هذا فراق بيني وبينك".

ألهذا الحد كان (عبد الملك) من التقوى والعلم حتى أنه يُضاهى بسعيد بن المسيب إمام التابعين؟! ألهذا الحد يشهد له الشعبي بقامته وعلمه،

حتى أنه يسأله في العلم من العلوم، فيزيده فيه ويشهد بأنه لا يفضله؟! نعم هذا هو عبد الملك قبل الخلافة.. فماذا حدث له؟ وكيف تبدل أمره؟!

لم يلبث عبد الملك أن خرج من زُمرة العباد الفقهاء إلى دنيا الإمارة والملك، خرج من طمأنينة النفس وراحة الضمير، إلى الصراع على الملك والتقاتل عليه، فسفك الدماء وأزهق الأرواح..

قاتل أكثر من دعوة، وعلى أكثر من جبهة، جبهة ابن الزبير في الحجاز، وجبهة المختار بن أبي عبيد في الشام، وجبهة الروم، وجبهة إفريقية، ناهيك عما كان يُهدده من بعض أنصاره والموالين له، نعم لقد تحول عبد الملك تحولا خطيرا، وكأنه انتقل من عالم إلى عالم آخر، وإذا رأيته في الخلافة فلا يمكن أن تصدق أنه ذلك العابد الفقيه الذي كانت رتبته تطال رتبه سيد التابعين (سعيد بن المسيب).

انظر إليه كيف صار شرسا في صراعه على الحكم!.

يقول ابن كثير:"وكان عبد الملك له إقدام على سفك الدماء، وكان عماله على مذهبه؛ منهم الحجاج والمهلب، وغيرهم".

و حج عبد الملك سنة خمس وسبعين بعد مقتل ابن الزبير بعامين، فكان مما قال في خطبته: أما بعد ، فإنه كان من قبلي من الخلفاء يأكلون من المال، ويؤكلون، وإني والله لا أداوي أدواء هذه الأمة إلا بالسيف ، ولست

بالخليفة المستضعَف - يعني عُثمان - ولا الخليفة المداهن - يعني مُعاوية - ولا الخليفة المأبون - يعني يزيد بن معاوية - أيها الناس ، إنا نحتمل منكم كل اللغوبة[١]، ما لم يكن عقد راية، أو وثوب على منبر"[٢].

ثم تأمل ماذا فعل بمصعب بن الزبير، وهو الذي كان من أعز خلانه ومن أحب الناس إليه قبل توليه الإمارة.

"كان عبد الملك يحب مصعبا حبا شديدا، وكان من خلانه قبل الخلافة، فقال لأخيه محمد: اذهب إليه فأمنه، فجاءه، فقال له: يا مصعب قد آمنك ابن عمك على نفسك وولدك ومالك وأهلك، فاذهب حيث شئت من البلاد، ولو أراد بك غير ذلك لكان، فقال مصعب: قُضي الأمر، إن مثلي لا ينصرف عن مثل هذا الموقف إلا غالبا أو مغلوبا، وقاتل مصعب حتى قتل، وقطعوا رأسه وأرسلوها لعبد الملك، فلما وضع بين يديه بكى وقال: والله ما كنت أقدر أن أصبر عليه ساعة واحدة من حُبي له حتى دخل السيف بيننا، ولكن الملك عقيم، ولقد كانت المحبة والحرمة بيننا قديمة، متى تلد النساء مثل مصعب؟ ثم أمر بمواراته، ودفنه"[٣].

(١) أي كل فساد وشقاء وعناء.

(٢) البداية والنهاية.

(٣) البداية والنهاية.

إن الحياة دوراة، والنفس لا تستقر على حال، ولا يدري أحدنا ما يخبئه له الدهر، وما أرجوه ألا يكون التحول في حياتي على حساب ديني وعلاقتي بربي، ومن هنا أسارع للدعاء النبوي، اللهم يا مثبت القلوب ثبت قلبي على دينك، فما دون الدين هين، وما دون الله عدم لا قيمة له.

* * * *

داهية الدسائس

أعرف حينما تقرأ هذا العنوان، أن ذهنك سوف تقفز إليه صورة الحجاج بن يوسف الثقفي، وأن ذاكرتك ستستدعي فيه ما قاله عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: "لو جاءت كل أمة بخبيثها وجئناهم بالحجاج لغلبناهم" ولعل هذا حتى زمن عمر، لكن التاريخ من بعده ينبئنا برجل أكثر منه خبثًا ومكرًا، أما الحجاج فقد كان طاغية جبارا ظالما، سفاكا للدماء، لكن صاحبنا هذا كانت تضج الخباثة لخبثه، ويفر الشيطان من مكره.

حينما يوجد الرجال السيئون في أمة من الأمم، تنتزع منها البركة، وحينما يحكم هؤلاء الرجال أمة من الأمم، فإن المصيبة تكون أبلغ وأعظم، حيث يعم الظلم وتظلم العدالة.

والحاكم الذي يُحيط نفسه بمثل هذه العينة من السيئين الحاقدين الماكرين، إنما هو في حقيقته حاكم لا يبتغي الفلاح في الأرض، ولا يبتغي سعادة الرعية ونهضة الأمة، وإنما لا يهتم إلا بتحصين نفسه، وحماية عرشه، والتمكين لملكه.

ونحن اليوم نرسم صورة أخبث رجل في تاريخ المسلمين، وأمكر من عرف بلاط الخلفاء، ولعل مما ساهم وساعد في ظهوره، وتفتق مواهبه في

المكر والدسيسة، هو ما تميز به ذلك العهد من هذه الخلال، وفي فترة حكم الدولة العباسية التي لم تكن تعتمد على القوة العسكرية فقط، وإنما كانت تلجأ لاستخدام المكر والخديعة وشتى الحيل للكيد والتخلص من الخصوم.

أما عن هذا الرجل الخبيث الذي تعاظم مكره، وفاقت دسائسه، فهو (الربيع ابن يونس) وزير أبي جعفر المنصور، ويمكن لنا أن نعده أخبث رجل في تاريخ الإسلام.

كان يغار من حظوة غيره من الوزراء عند الخلفاء، وكان لديه في الكيد صبر وباع طويل، ويصبر على مؤامرته حتى تؤتي أكلها على المدى البعيد.

والحق أنني أمام ما قرأت من سيرة الرجل أتعجب غاية العجب وأتساءل: كيف لا يُضرب به المَثل في الدسائس والمؤامرات؟ وكيف لا يُجعله العرب رمزا للمكر والخداع والوقيعة؟ لماذا لا تدرس موافقه ومواقعه، لكل من أراد إتقان المؤامرات، واحتراف الحيل، والتفوق في الدسيسة؟ لا شك أن حياة هذا الربيع ستنفع هؤلاء الدارسين كثيرًا.

بعض الناس يمنحهم الله تعالى ذكاء ودهاء، ولكنهم لا يستخدمونه إلا في الشر، ولا يتوقد هذا الذكاء إلا في ميدان الشر، يبدع فيه ويثمر ويزدهر كما كان حال صاحبنا.

فرق كبير بين أن تظلم الناس بقسوة وأن تظلمهم بخبث ومكر، فالأولى قد تقبل النفس صورتها، لكن الثانية تتألم منها النفس كثيرا، لأن الخيانة مرة قاتمة.

وإنك لتندهش من بعض الكتب التي وصفته بالنبل والفضل، ولكني أحسبها من التي تصف ظاهره في الدنيا، أما عظائمه فتمتلئ بها أنباء العصر العباسي.

انظر إلى (أبي أيوب المورياني) كان عالمًا فطنا لبيبا عرفه أبو جعفر المنصور وجعله وزيره وأسند إليه الدواوين وصار رجل الدولة الأول بعد المنصور، وكان يحبه حبا عظيما حتى قال الناس: إنه سحر أبا جعفر، وهناك على الجهة المقابلة كان صاحبنا الذي تئن الأرض لوطأة مَكرِه، كان الربيع بن يونس حاجب المنصور الذي لم يكن تعجبه هذه المنزلة التي نالها المورياني من قلب الخليفة، وكان مع هذه الغيرة يتطلع لمنصب الوزارة الذي يشغله المورياني، وقد قيل في وصفه: "إنه إذا عزم على أمر اتجه له بكل مواهبه، وشق له كل السُبل حتى يُكتب له النصر، ويصل إلى الهدف الذي يبتغيه، وهو في سبيل مأربه لا يرحم، ولا يكترث بالمُثل العليا والقيم الأخلاقية"

لقد كان يُطلق العيون والجواسيس، ويرشو الرجال حتى يأتوه بالأخبار والخفايا التي تقصم ظهر خصومه، ولم يزل بأبي أيوب المورياني

يدس عليه الدسائس، ويرتكب ضده الحيل، حتى أوغر صدر الخليفة عليه، وانتهى الأمر بقتله وقتل أهله أجمعين، وخلا منصب الوزارة لصاحبنا فظل يشغله حتى مات المنصور.

وجاء عهد المهدي، فرجع فيه لمنصبه القديم حاجبا للخليفة الذي كان له وزيره البارع أبو عبيد الله معاوية بن يسار، والذي وُصف بأنه أفضل الناس حذقًا وعلمًا، وكان المهدي يعتمد عليه ولا يعصي له أمرًا، فحقد عليه الربيع لمكانته من المنصور، فصار يحيك له المؤامرات ويفتش وراءه، ولكن الرجل كان نظيفا شريفا لا يؤتى من قبله، فحار الربيع في أمره، إنه لا يعرف كيف يمسك عليه هفوة أو يثبت عليه ذلة؟ فماذا يفعل معه إذن؟

لابد أن يفتش في حياته، ويسأل عنه أعداءه ليدلوه على سيئاته، وكان للوزير معاوية خصم يبغضه وهو القشيري، استدعاه الربيع وأخذ يسأله عن سيئات صاحبه، فهداه القشيري إلى أسوأ ما في حياة معاوية بن يسار وهو ولده، الذي كان مذموم السيرة، مرميا بالزندقة، وهنا انفرجت أسارير الربيع، ومن فرط سعادته قبل الرجل بين عينيه، بعد ما تبين له من أين تؤكل كتف الوزير.

وكان المهدي في تلك الفترة عنيفا شديدًا على الزنادقة، يتبعهم في كل موطن، ويسارع إلى قتلهم والفتك بهم، فدس الربيع على المهدي من أخبره

بنبأ ولد الوزير، فسأل المهدي وزيره عن ولده، فقال: بأنه حفظه القرآن وعلمه أمور الدين، ولكن الربيع يواصل دسه وحقده، ويُعلم الخليفة بأن ولد الوزير زنديق، يحرض غيره من الشبان على الزندقة، وأنهم يحتمون به وبجاه أبيه، فأمر المهدي به فجيء بين يديه، فسأله في القرآن فلم يعرف، فقال لأبيه: ألم تخبرني أن ابنك يحفظ القرآن ؟ قال بلى يا أمير المؤمنين، ولكنه فارقني منذ مدة فنسيه، فقال الخليفة: قم فتقرب إلى الله بدمه، فقام أبو عبيد الله ولكنه ارتعد وتعثر، فقال عم الخليفة: يا أمير المؤمنين أعف الشيخ من قتل ولده، وولي ذلك غيره، فأمر به المهدي فضُربت عنقه.

وصار الوزير بعد هذه الحادثة، حزينا ذليلا منكسرا، ولكن الربيع لم يكتف بهذا، فما دام الوزير في وزاته، فليس له قرار ولا هناء، لقد وجه للرجل ضربة قاسية في فلذة كبده، ولكن ذلك لم يشف حقده منه، لأنه قائم في منصبه قريب من المهدي، فكان لابد من مؤامرة أخرى تقصم الرجل نفسه، فإذا بالربيع يميل على بعض الخدم ويقول له: لك علي ٣٠٠٠ دينار إن فعلت ما آمرك به، فقال وما هو؟ قال: إذا دخل أبو عبيد الله على الخليفة وصار بحضرته، قبضت على سيفه، ومشيت إلى جانبه، فسينكر عليك أمير المؤمنين، فتقول ساعتها: يا أمير المؤمنين، قتلت ابنه بالأمس، فكيف آمنه عليك أن يخلو بك ومعه سيفه اليوم، ففعل الخادم ذلك، فكان هذا مما أوحش المهدي من أبي عبيد الله.

ورويت حادثة أخرى عن الربيع نفسه، حينما جاء أبو عبيد الله ليعرض بعض الكتب الواردة من الأمصار على المهدي فأمر المهدي بإخلاء المجلس فامتنع الربيع من الخروج، فقال له الخليفة: اخرج يا ربيع، فقال: يا أمير المؤمنين كيف أخرج وأنت وحدك وليس معك سلاح وعندك رجل من أهل الشام وقد قتلت ولده بالأمس فكيف أدعك معه وأخرج؟

فلم يأمر الربيع بالخروج وقال لوزيره: اعرض ما تريد فليس دون الربيع سر.

واستطاع الربيع بهذه الأفعال الماكرة والدسائس الخبيثة، أن يوغر صدر المهدي على وزيره، حتى أمر بعزله، وأسند للربيع كل مناصبه، وأما الرجل المسكين فانقطع في داره، واضمحل أمره، وانتهى ذكره، وورث الربيع سلطانه.

هذا بعض من تاريخ الرجل ومن أراد المزيد فليراجع كتب التاريخ في شخصه، وما قيل عنه وما دون من مؤامراته الرهيبة المزلزلة، وينتهي زمن الربيع فيموت أو يقتل، وقيل سمه المهدي، ولكنه قبل أن يموت يترك لنفسه في ميدان المكر والخديعة وريثا له، وهو ولده الفضل بن الربيع، الذي كان له الفضل الأول في نكبة البرامكة.

* * * *

عجبًا لماذا يعشقون الطغاة

هل تتصور وتتخيل أن هناك أناسًا يتعاطفون مع الظلمة الجبابرة، ويلتمسون لهم دائمًا كل الأعذار والتبريرات؟!

نعم هناك أشخاص كثيرون أعرفهم، وأجد فيهم ميلا جارفًا للظالمين، وحبا وإعذارا لهم في كل ما فعلوه ويفعلونه، والحق أنني في حاجة لطبيب نفساني يُفسر لي هذا الميل الغريب، الذي يضاد الفطرة والعقل والدين.

وتجد هذا الخُلق المعوج أكثر ما تجده، عند بعض التيارات السلفية التي تؤلِّه الظلم والظالمين، ولو خيرت بين عادل وظالم لاختارت الظالم! لا لشيء إلا لأن الإمام أحمد ابن حنبل قال قولته الشهيرة: ستون عامًا في ظل سلطان جائر خير من عام واحد بلا سلطان.

فهم في حاجة لأن يعيشوا حالة الإمام أحمد لفرط حبهم له، ومن ثم ألفوا هذا الظلم، لأنهم يشعرون أن صبرهم عليه وعذرهم له نوع من الفقه والفهم في دين الله.

إن بعضهم يتحدث عن الحجاج بن يوسف، ويحاول إنصافه، ويرى نفسه على هذه الحال أنه يصحح التاريخ، ويأتي بمفهوم جديد في الدين

والتراث، وما هو إلا وهم وكذب، بل يتجاسرون وهم يستشهدون بفتوحاته وأعماله العسكرية، ويحاولون زورا أن ينسبوا وجهتها للإسلام، وما هي إلا إضافة لرصيده السياسي ودعما لسلطانه الذي قتل الناس باسمه.

شأنهم في هذا شأن أولئك الضامرين ذهنيًا وعقليًا، ويصرون كلما حدثتهم أن الحجاج بن يوسف كان شيئًا عظيمًا، وكان آية في الحكم، ولا يذكرون له إلا بعض مواقف نادرة ندرة الكبريت الأحمر، يتجلى فيها بعض إنصاف أو تعظيم لله، والحق يقال: الرجل كان فاجرًا طاغيًا باغيًا، حياته مليئة بالظلم الفادح، وإراقة الدماء وإزهاق الأرواح.

وانظر لهذا الموقف "جاء رجل إلى الحجّاج فقال: إن أخي خرج مع ابن الأشعث (وهو ثائر ضد الأمويين)، فضُرِب على اسمي في الديوان (أي وضعوني على قائمة سوداء)، ومُنِعت العطاء (حُرِمتُ الراتب)، وهُدِمَت داري. قال الحجاج: هيهات، أما سمعت قول الشاعر:

ولرب مأخوذ بذنب قريبه .:. ونجا المقارف صاحب الذنب.

قال: أيها الأمير، إني سمعت الله يقول غير هذا، قال: وما قال؟ قال: قوله تعالى: «قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ. قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا

﴿لَظَالِمُونَ﴾. قال الحجاج: يا غلام، أعد اسمه في الديوان، وابنِ داره، وأعطه عطاءه، ومُر منادياً ينادي أن صدق الله وكذب الشاعر".

وأمام هذا الموقف الشاذ والنادر في حياة الطاغية، يصر بعضهم أن يجعل منه نبيًا ووليًا وعارفًا بالله تعالى، ويريد أن يهيل التراب عن حياة شقية تنوء بثقل أوزاره وآثامه، بل إني أعتقد وأكاد أجزم أن مثل هذه الأخبار مكذوبة عليه، أو اصطنعها أحدهم حتى يجمل صورة طاغية بني أمية، لم يرده الخجل والحياء عن ضرب بيت الله بالمنجنيق، خاب وخسر.

وهؤلاء المتعاطفون مع الطغاة من أبرز سماتهم أنهم يضربون صفحًا بالنصوص، ولا يقيمون اعتبارًا ولا وزنًا لشهادات العلماء في قول يعشقه هواهم، ويؤكد عليه مزاجهم، فإذا ما قلت لهم قال: فلان وعلان، لا ينال من نفوسهم موقعًا لأن كل هذا لا يمثل أي اعتبار أمام حبهم الفطري للظلم والظالمين .

وفي كتابنا العمائم الثائرة، كان لابد أن نلوح لأقوال الأئمة والعلماء في طاغية الأمويين، ونحن نتعرض لشخصية العالم الثائر سعيد بن جبير الذي قتله الحجاج وسفك دمه، وهو أعلم المسلمين وسيد السادات.

قال أحمد بن حنبل: "لقد قتل سعيد بن جبير، وما على الأرض أحد، إلا ومحتاج إلى علمه"، أما الطاغية فلا أعرف كيف لا تنهد قلوب المتعاطفين معه حينما يسمعون هذه الأقاويل، والتي منها؛

قال عمر بن عبد العزيز: لو جاءت كل أمة بخبيثها وجئنا بالحجاج لغلبناهم، وقال هشام بن حسان: أحصوا ما قتل الحجاج صبرًا فبلغ ١٢٠ ألف قتيل، وقال الذهبي: أهلكه الله في رمضان سنة خمس وتسعين كهلًا، وكان ظلوما جبارا ناصبيًا خبيثًا سفاكًا للدماء، وعن حماد قال: بشرت إبراهيم النخعي بموت الحجاج فسجد ورأيته يبكي من الفرح، وقال ابن كثير في البداية والنهاية: "كان ناصبيًا يبغض عليا وشيعته في هوى آل مروان بني أمية، وكان جبارًا عنيدًا، مقدامًا على سفك الدماء بأدنى شبهة، وقد روي عنه ألفاظ بشعة شنيعة ظاهرها الكفر".

كل هذه الشهادات التي قدمها الأئمة وأدلى بها العلماء، حاولت وصف ما كان عليه أشهر طغاة العرب الظالمين، الذين لم تعرف قلوبهم الرحمة، ولم تعرف أنفسهم شبعًا لإراقة الدماء، ويصر المغفلون من جهة أخرى أن يجعلوه عظيمًا من عظماء المسلمين، إن لم يكن من عظماء الدنيا.

* * * *

عورات التاريخ

هناك قوم يعيبون علينا أن نبرز عورات الطغاة في تاريخنا، بحجة أنهم جزء منه، ومن ثم يجب التعمية عنهم وإغفال ظلمهم، حتى يظل ثوب التاريخ أبيض قشيبًا، وسمعته طيبة زكية، وذكرياته وضاءة مبهجة، وهذا لا شك خطأ كبير، فلا شيء يضيف إلينا قيمة أو يرفع من مكانتنا، إلا عقيدتنا وتعاليم ديننا وانتماؤنا لإسلامنا العظيم، أما غير ذلك فلا نطلب فيه الرفعة، أو نرجو فيه التجمل، طالما سيرته لا تحتمل ذلك .

كما أن المساوئ في تاريخنا إن حاولنا ذكرها أو الاشارة إليها، فإنما نذكرها لنتعلم منها، ونجد فيها عبرة وعظة ودرسًا، ولا نذكرها لنهين تاريخنا أو نحقر من مكانته، لأنه والحمد لله عامر بالمفاخر والأماجد والإيجابيات الكثيرة، التي تجعلنا نعتد به ونتباهى بأيامه، فإذا لم يجد أحدهم حجة تديننا، فإنه يتهمنا بأننا نشغل بالنا بما لا يفيد، وربما يكون كذلك، ولكنه من وجهة نظره القاصرة، أما نحن فيفيدنا ما في تاريخنا بسيئاته قبل حسناته، ونعرف جيدًا ماذا نأخذ منه ليفيد واقعنا الأليم.

ثم إنه من الزور الكبير أن نجد أناسًا يتعامون عن طاغية ويجملون صورته بحجة أنه جزء من تاريخنا الاسلامي، والحق أنه نقطة سوداء في هذا

التاريخ، وفي ذات الوقت لا يعيب مسيرة التاريخ ولا يعيب الإسلام نفسه في شيء – إن حاول متوهم أن يتوهم شيئا من هذا.–

ربما حافظ أحدهم على الدولة الإسلامية وضمن قيامها واستمرارها، لكنني أؤكد أنه ليس حبا في الاسلام، وإنما ضمانًا لاستمرار عرشه ومكانته وسلطته، فرجل كأبي جعفر المنصور كان طاغية جبارًا سفاحًا غادرًا يهدر الارواح، ويستهتر بالدماء، ويفني الرجال ويبيد العلماء.

والحق أنه يؤلمني نقد الناقدون، وضيق أفقهم واتهاماتهم اللاذعة، والتي أعلم أنه لن ينجو مثل هذا المقال من فحيحهم، ومن ثم حاولت صدًا لهذه الهرطقة أن أستشهد بكلام عالم من كبار علماء الإسلام ومحققيه المشهودين وهو العلامة الدكتور (محمد رجب البيومي) في كتابه (علماء في وجه الطغيان)، وهو يصف أبو جعفر المنصور وغدره وشره واستهتاره بالدماء فيقول: "إنه ينقلب على أصدقاء الأمس ممن بنوا مجده، ورفعوا خلافته فتسيل دماؤهم على شفرات سيوفه، وتتساقط رقابهم بضربات أنانيته وحذره، ثم إنه لا يقتصر في ذلك على أصدقائه وأعوانه ممن لا تربطه بهم أواصر الدم والنسب، بل ينتقل إلى أبناء عمومته فيتخذهم خصوما أشد خطرًا وأفزع أثرًا من الأباعد الغرباء، ويعمل فيهم جبروته فيغتال الأرواح ويسفك الدماء، وليت شره اقتصر على بني العمومة، بل انتقل إلى بني

العباس أنفسهم، فهو يقصي ولي عهده بتدبير ظالم، ليمهد السبيل لنجله ثم يتتبع أنصاره وخلصاءه، فلا يفلت من يده أحد، ويظن الظنون في طوايا وزرائه، ونيات قواده، فيعصف في الغد بصديق الأمس، ويحدث من الارتياب والقلق في نفوس حاشيته ما يجعل الوزير المطاع يترقب يومه في حذر وإشفاق".

وإلى هنا انتهى كلام العلامة البيومي، والذي يرتد معه مخزيًا فم الكثيرين ممن يستسهلون اتهامنا بالجهل والسطحية، ولكم تعجبت حينما جعله مصطفى نجيب في كتابه من حماة الإسلام وهو طاغية سفاح قاتل، ولكن كما أشرنا آنفا: السياسة والحرص على بقاء العرش والسلطة والحكم.

ولكم تخيلت جرأته ووقاحته، وهو يأمر بجلد إمام المسلمين العظيم، وأسمى شخصية عرفها تاريخنا المجيد الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان؛ يأمر باعتقاله وحبسه وجلده حتى يتسبب في موته، ولا يراعي فيه حرمة العِلم والسن ومقامه في الإسلام.

كما كان لئيما يعبث بمصالح الرعية لخدمة أغراضه السياسية، التي تضمن له بقاء عرشه وسلطته هو وبنيه، فكان يصادر أموال الناس، وكلما صادر مالا وضعه في بيت المال، وكتب عليه اسم صاحبه فلما مرض مرض الموت، قال لابنه المهدي وولي عهده: يا بُني إني قد أفردت كل شيء أخذته من

الناس على وجه المصادرة، وكتبت عليه أسماء أصحابه، فإذا وليت أنت فأعده إلى أصحابه ليدعو لك الناس ويحبوك .

أما الغدر فحدث ولا حرج، فكم أعطى أمانًا وأخلفه! وكم أمن أناسًا وغدر بهم!، فقد قتل عمه عبدالله بن علي بعدما أعطاه الأمان وكتب في ذلك عهده، وقتل أبا مسلم الخرساني بعدما أعطاه الأمان وطمأنه أنه غفر له وقبل رجعته، كما قتل ابن المقفع الذي كان رائعة زمانه لأنه كتب كتاب الأمان لعمه عبد الله، واغتاظ من بعض ألفاظه وجمله.

ولقد كان غدره بعمه صورة بشعة تصور نفسه التواقة للبطش الرافضة للعفو والصحف، إذ لما هُزم عمه عبد الله بن علي أمامه فر إلى إخوانه في البصرة، فأرسل المنصور في طلبه فتوسل له أخواه موسى وعيسى، وطلبا له الأمان فقبل المنصور، واتفقوا أن يكتبوا في ذلك كتابًا لأنهما يعرفان غدر المنصور، فوافق على كل ذلك ووقع الكتاب، ولكنه اشترط أن يرى عبدالله أولا حتى لا يسير في البلاد ويسعى عليه بالفساد، فلما قدم عبدالله مع أخويه أذن المنصور بالدخول لأخويه، وبعد حديثه معهما أمرهما بالرجوع إلى أخيهما عبدالله، ولكنهم رجعوا فلم يجدوه لأن المنصور قبض عليه ليقتص منه بعدما أعطاه من الأمان، بل قتل كل من حضر معه متشفعًا له.

إن خِلة الغدر في شخصية أبي جعفر معهودة معروفة، يعرفها أهل زمانه ويحفظها له التاريخ، ومن شاء التوسع فيها فما عليه إلا أن يقرأ عنه ويُعاين أحداثه ومواقفه، ونؤكد مرة أخرى أننا لا نكشف عورات التاريخ، ولا نسلط الضوء على عواره، وإنما نستعرض سيرة أناس ظلمة جبارين، سفكوا دماء المسلمين وأهانوا علماء الدين، من أجل مطامع الدنيا، وشهوة الحكم والسلطان.

* * * *

العبيدي العادل

الدارس لدولة العبيدية، أو بالمعنى المعروف دولة الفاطميين في مصر، يعرف كم ضمت من طغاة عتاة وسفاحين فاجرين، أبغضوا أهل السنة، ومكروا بالرعية المتسننة، وقتلوا كثيرًا من العلماء والأفاضل والأعيان الذين رأوهم على غير طريقهم وأهوائهم.

ولكن ما أروع العدل، وما أروع العدل حينما يجيء بعد ظلم وغدر وشر، وهو حال الوزير الفاطمي (المأمون البطائحي) الذي سنسرد الأن عنه مناط حديثنا وغاية مرادنا.

قد نختلف وقد لا نتفق، لكن ذلك لا يمنع أبدا أن يحب بعضنا بعضا، ويقبل أحدنا صاحبه، وقد تكون قويا، ولكنك لا تسمح لهذه القوة أن تلغيني وتمحوني وتستأصل شأفتي، وهو منطق لا يؤمن به إلا من يحترمون الإنسان ويوقرون البشرية .

إن الإنسان لم يرزق العقل والتفكير والحكمة والعلم والتنوير إلا ليعيش سالما آمنا مطمئنا، وإن كفر بهذه المقومات ولم يلق لها بالا فما أتعس الإنسان! وما أشقى حياته!، وهو ما نعيشه في ظل الحكومات الأوحدية الباغية.

إن الايمان بالآخر صار شيئا نادرا في دول العالم المتأخرة، وإحياء الإيمان به يتطلب ثورة عارمة في النفوس والضمائر والأفهام، ثورة لفهم معنى الإنسان، يعجني من قال يوما بأن الديمقراطية والدول الأوروبية التي تحيا في مناخها هي أفضل البيئات لانتشار الإسلام، لأنها تفسح الميدان للحرية والرأي الآخر، والاختيار الحر، وتحترم العقائد كلها تحت مظلة واحدة.

ولعل نطاق الحرية الذي أتاحه المأمون البطائحي لأهل السنة وعلمائهم، وما ألغاه من مظالم جائرة قضى بها من سبقه، جعلت بعضا من علماء السنة العقلاء يحفظون ذلك الرجل ويمدحونه فيه، ويطيرون به فرحا، ويسعدون به أيما سعادة، وهو ما يدلل على سواد الحقبة التي سبقته، حتى أن عالما جليلا مثل أبي بكر الطرطوشي، والذي أخرجه المأمون من السجن يؤلف كتابه الشهير سراج الملوك ويهديه إلى هذا الوزير الديمقراطي العادل، ولما قدم عليه في الإسكندرية استقبله استقبالا حسنا، وكرمه، وقربه، ودار بينهما نقاش حول الأمور التي يراها الطرطوشي عللا في الدولة ومخالفة صريحة للشريعة وأحكامها، وكان من هذه المسائل التي حدثه فيها مسألة ميراث البنت، وقد كان القضاة في مصر وقتها يتبعون المذهب الشيعي الإسماعيلي، والذي يقضي أن ترث البنت ما يترك أبوها إذا كانت وحيدة لا أخ لها ولا أخت، ويحرم العصبة من المشاركة في الميراث.

كما كان من المتبع في نظام الدولة أن يأخذ الموظفون القضائيون المشرفون على شؤون الميراث ربع العشر من أموال اليتامى عند توزيع التركة بمثابة أجر لهم، وهو ما أعلن الطرطوشي بأنه مخالفة للشرع الحنيف، فالمذهب السني يرى أن البنت الوحيدة لا ترث أكثر من نصف التركة، أما الأمر الثاني فهو ظلم فاحش وغير مقبول واغتصاب لحق الأيتام، ومن واجب الدولة أن تحافظ على أموال الناس وتصونها لا أن تقتطع منها لموظفيها.

وجرى نقاش بين العالم والوزير حول هذين النقطتين فوافق الوزير على منع موظفي الدولة من اقتطاع الميراث واقتنع فعلا بأنه إجحاف، أما مسألة ميراث البنت فرفض محتجا بأنها عادة جرت وعرف يأخذ به المذهب الفاطمي، وليس من السهل أن يوافق على تغييره، لأنه يتصل بمذهب الدولة الرسمي .

وبعد نقاش طويل وأخذ ورد وافق الوزير على حل وسط يرضي مذهب الدولة ويرضي الطرطوشي، فقد وافق على القضاء في الميراث بمذهب الميت، فإن كان سنيا تبع المذهب السني، وإن كان شيعيا تبع المذهب الشيعي، وصدر بهذه الأوامر سجل رسمي موقع عليه من قبل الخليفة الآمر بأحكام الله، ووزيره المأمون، وأرسلت للقضاة في كل أنحاء الدولة.

ولا شك أنه خيار يقضي به الإيمان بالآخرين قبل أن تقضي به الحكمة والبصيرة والسياسة.

لقد أكبر الطرطوشي مكانة هذا الوزير وعدالته، وأهدى له كتابة الفريد حتى أنه قال فيه إطراء غير مسبوق، وجعله فيه منة من الله على المسلمين ومما جاء فيه:" لما رأيت الأجل المأمون، تاج الخلافة، عز الإسلام، فخر الأنام، نظام الدين، خالصة أمير المؤمنين، أبا عبد الله محمد الآمدي، أدام الله عزاز الدين نصره، وأنفذ في العالمين بالحق أمره، وأوزع كافة الخلق شكره، وكفاهم فيه محذوره وضره، فقد تفضل الله به على المسلمين، فبسط فيهم يده، ونشر في مصالحهم أحوال كلمته، وعرف الخاص والعام يمنه وبركته، وتقلد أمور الرعية، وسار فيهم على أحسن قضية، متحريا الصواب، راغبا في الثواب...إلخ"

ولعل متشددا يتنكر قول الطرطوشي، وهو من أئمة الدين الكبار في هذا الوزير العبيدي الشيعي، ولكنه العدل يا قوم، الذي إذا ما رزقت به أمة من الأمم فإنها رزقت النعيم كله ومنيت بالسعادة كلها، والذي إذا ما حرمت منه أمة تعالت فيها أصوات جهنم، فحولت حياة الشعوب بؤسا وضنكا وكربًا عظيمًا.. فاللهم ارزقنا العدل.

* * * *

العثمانيون إضاءات وظلامات

أنا معك وأصدقك ولا أكذبك أبدًا، أن تاريخ الخلافة العثمانية يحفل بالسلبيات الكثيرة والكبيرة، والظلامات المتنوعة المتعددة، ولم أقل أبدًا أنها بقرونها الخمسة، كانت نسخة بالكربون من زمن الخلفاء الراشدين المهديين وأيامهم .

ولكن.. ألست معي حتى نكون من المنصفين النبلاء، أن ندرك أن حكمهم وأزمانهم التي قبضوا بها على سلطان الدنيا، شأنهم فيها شأن أي دولة وعهد، لها إشراقات وإضاءات، وفيها مظالم وهنات؟ ألست معي أننا ننحرف ونخطئ كثيرا، حينما نضخم الهنات والزلات، ونتجاهل المباهج والانتصارات؟

ثم قل لي بالله عليك أي دولة وأي مملكة في الدنيا لم تقدم الخير والشر معا حتى في الزمن الحديث؟ ومع تلك الأمم التي أقرت حقوق الإنسان ورفعت كرامة البشر.. نجد إهانة الإنسان قد بلغت ذراها تحت وطأتهم، فلماذا الجور في الحديث والخطأ في الحكم؟ والكيل بمكيالين في تقييم الدولة العثمانية؟!

لكن دعني أحدثك في نقاط مهمة قبل أن يسوقك الشطط دوما في الحكم على هذه الدولة.

❖ ١-إن الغرب الصليبي لا يبغض الأمويين والعباسيين ولا غيرهم، كما يبغض الأتراك العثمانيين، لأنهم الوحيدين الذين توغلوا في أوروبا وهزموا جيوشها عسكريا، وأسقطوا حاضرتهم القسطنطينية، التي كانت موئل فخرهم، ومناط عظمتهم، ثم انطلقوا بعدها واستولوا على البلقان، وحاصروا فيينا وبطرسبرج عاصمة الإمبراطورية الروسية .

ولي الحق إن قلت: إن السبب الأكبر الذي جعل الغرب مسعورًا في حربة ضد الإسلام قاطبة، هو ما وجده وأذهله من هذا الزحف العتي للجيوش التركية الإسلامية، وتصميمها الذؤوب على أسلمة أوروبا، ومن ثم كان حقدهم الصليبي عنيفًا لم يقابلوا به غيرهم من المسلمين.

❖ ٢ -حينما ضعفت شوكة المسلمين وانحسر مدهم بسقوط الأندلس، بدأت أوروبا تتجهز لشن حملات صليبية جديدة ضد المسلمين، واعتقدوا أن هذه هي الفرصة الذهبية للقضاء على الإسلام ومحوه من الأرض، لأنه في أزهى مراحل ضعفه، لكنهم فوجئوا بالعسكرية التركية الإسلامية وألويتها الشرسة تخترق حدودهم، وتحتل ديارهم، وتهدم ممالكهم، مما أدى إلى إفشال أحلامهم وأمانيهم.

❖ ٣ -يظهر بجلاء عداء اليهود للعثمانيين، لأنهم أول من وقفوا ضد المشروع الصهيوني ورفض خليفتهم عبد الحميد إقامة وطن لهم في فلسطين، ومن ثم تحالفوا مع الصليبية العالمية لهدم هذه الخلافة، وإضعافها وتقويض أركانها، ولما كان الفكر والإعلام أهم أسلحة اليهود، سلطوا كل ذلك لتشويه صورة العثمانيين، وأوعزوا لكتابهم أن يشوهوا سمعتهم في كثير من المراجع والكتابات التاريخية التي ينهل منها الكثيرون.

❖ ٤-سعوا كذلك إلى بث روح الكراهية في نفوس المسلمين للعثمانيين بالحق والباطل، حتى يسلخوا المسلمين من رابطة الأخوة والتضامن والوحدة التي تكفلها الخلافة الجامعة، فأخذوا يضخمون سيئاتها ويطوون حسناتها، حتى يتوارى المسلمون خجلا أن ينتسبوا لها أو يحسبوها منهم، وصورها أذنابهم في كتاباتنا التاريخية بأنها احتلال واستعمار.

كما نرى من المسلمين اليوم من لا يُقيّم حقبتها إلى قسمين.. حقبة عادلة وحقبة ظالمة.. لكنه وللأسف ما أن تذكر كلمة العثمانية حتى يهب لذكر الحقبة السوداء والأيام القاتمة.. لتكون النتيجة ضياع الحقب المشرقة، التي تفقد كل اعتبار مع ما سلف من سوء.

ولعل ما ذكرنا من نقاط، أن يكون فيها كشفا لمن يتصدون لهذا الشأن عن حقيقة المؤامرة التي أحاطت بتاريخ هذه الدولة العلية، التي نصرت الإسلام وأعزت رايته في الشرق والغرب.

تعد الدولة العثمانية كأي دولة لها سلبيات وإيجابيات، لكن البعض يقرر أن سلبياتها أكثر، ومنهم من يقول: لم يكن لها إلا إنجازات عسكرية فقط .

وإني لأتعجب كثيرًا من هذا القول وأتساءل :

هل هذا ذنبهم أم ذنب الأمم المعادية التي كانت تتحرش بدولة الإسلام ليل نهار، تريد أن تنهشها وتقضمها بأنيابها الغادرة؟

كيف وأنى لهم أن ينطلقوا في ميادين التقدم العلمي والحضاري، وهم يزودون ليل نهار عن راية الإسلام التي تتناوشها رياح الصليب من كل مكان؟!

وأنا أؤكد لهؤلاء الطاعنين أن العثمانيين لو قدر لهم أن يعيشوا حياة هادئة بلا حرب ولا طعان، لكانت لهم حضارة سباقة في كل علوم الدنيا، ولكنه الواقع الذي فرض عليهم ذلك، ومن ثم.. كان من الظلم البين أن نقيم هؤلاء الناس في ظل ظروف منعت عنهم ما توفر للحضارات الأخرى، إذ نحملهم ما لا طاقة لهم به، ونطالبهم بما لم يكن في أيديهم.

هناك من يُصر أن يجعل منها دولة استعمارية توسعية مجردة من المنهج والرسالة والقيم العليا، ويستدل كذلك بما كان من بعض معاركهم الضئيلة التي انتهج فيها بعض الجنود أسلوب النهب والتدمير، ولو رجعنا إلى أسباب ذلك لوجدنا له مبرراته في بعض الأحيان، وهؤلاء لا شك عندي، خدعوا بما دسه الأعداء من تاريخ مفترى على هذه الدولة العلية، التي حمت دين الله وحملت لواء نشره شرقًا وغربًا، وإذا أردنا أن نبصر العثمانيين على المستوى الإنساني وديدنهم في كل فتوحهم ومعاركهم رغم قسوتهم العسكرية، فإنهم بعد الفتح كانوا ينصاعون للسمت الإسلامي، وأوامر الدين التي ترمي إلى تحبيب المغلوبين في دين الغالب.

انظر ما فعل الفاتح محمد بعد فتح القسطنطينية "توجه الفاتح إلى كنيسة آيا صوفيا، وقد اجتمع فيها خلق كبير من الناس، ومعهم القساوس والرهبان، الذين كانوا يتلون عليهم صلواتهم وأدعيتهم، وعندما اقترب من أبوابها خاف النصارى داخلها خوفًا عظيمًا، وقام أحد الرهبان بفتح الأبواب له، فطلب من الراهب تهدئة الناس وطمأنتهم والعودة إلى بيوتهم بأمان، فاطمأن الناس وكان بعض الرهبان مختبئين في سراديب الكنيسة، فلما رأوا تسامح الفاتح وعفوه خرجوا وأعلنوا إسلامهم".

وأعطى السلطان للنصارى حرية إقامة الشعائر الدينية واختيار رؤسائهم الدينيين، وعامل أهل القسطنطينية معاملة رحيمة، وأمر جنوده بحسن معاملة الأسرى والرفق بهم، وافتدى عددًا كبيرًا من الأسرى من ماله الخاص، وخاصة أمراء اليونان ورجال الدين، واجتمع مع الأساقفة، وهدأ من روعهم وطمأنهم إلى المحافظة على عقائدهم وشرائعهم وبيوت عبادتهم، وتناول السلطان الطعام مع أساقفتهم وتحدث معهم في موضوعات شتى، حتى تغيرت فكرتهم عن الإسلام والمسلمين تمامًا.

كلام كثير جدًا قيل في سماحة الفاتحين العثمانيين وحسن عدالتهم ومعاملتهم الراقية للمغلوبين، كلام لا يمكن إغفاله أبدا، وقد حاول بعض المؤرخين الغربيين تزييف هذه الحقيقة فكتب عكس ذلك، ولكنه كذب مفضوح مثل ما فعل الكاتب الإنجليزي (إدوارد شيبرد كريسي) في كتابه (تاريخ العثمانيين الأتراك) حيث شوه صورة السلطان والفاتحين، وكذلك فعلت الموسوعة الأمريكية المطبوعة عام ١٩٨٠م التي انتهجت في كلامها روحًا صليبية حاقدة ضد الإسلام والفاتحين العظماء، فزعمت زورا أن الفاتح محمد استرق غالبية نصارى القسطنطينية، وساقهم إلى أسواق الرقيق في مدينة أدرنة حيث تم بيعهم هناك.

ولكننا اليوم نقف في صف الحقيقة، ونعلي من صوتها ونصف بصدق فتوح العثمانيين ونقول: لقد كان الإسلام بقيمه قبل سيفه، يحكم الغالب والمغلوب.

* * * *

الإسكندرية أرض المرابطين

دائمًا ما نرى الإسكندرية على أنها بلد الجمال والترفيه والمناخ السياحي، وقبلة الراغبين في متعة الإجازات الصيفية والرحلات الترويحية، لكنها للحق وفي عرف المسلمين القِدامى كانت غير ذلك وعلى غير ما نعهدها اليوم.

لقد كانت قديمًا بلد الكفاح والرباط، وأرض الجهاد والنضال، ومقصد الأبطال والصناديد، وموطن الزهاد والعباد.

ولا أعلم كيف ضاعت عنها هذه الصفة، وتناسيناها من تاريخها، وغفلنا عن تراثها الأثير في دنيا المجد والعزة والكرامة والكبرياء والجهاد والرباط؟

فمن الأقوال المأثورة فيها: أربع أبواب من الجنة مفتحة في الدنيا: الإسكندرية وعسقلان وقزوين وجدة.

وكذلك قيل: إن الإسكندرية كنانة الله يحمل فيها خير سهامه.

وقال عبد الله بن مرزوق الصدفي: "لما نعي خالد بن يزيد، وكان توفي بالإسكندرية، لقيني موسى بن رباح وعبد الله بن لهيعة والليث بن سعد متفرقين وكلهم يقولون: أليس مات بالإسكندرية؟ فأقول: بلى، فيقولون: هو

حي عند الله يرزق ويجرى عليه أجر رباطه ما قامت الدنيا، وله أجر شهيد حتى يحشر على ذلك".

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يرسل كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط في الإسكندرية لحمايتها من غارات الروم وغدرهم، وكتب عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى ابن أبي السرح بعد نقض الروم للعهد معه: "قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالإسكندرية، وقد نقضت الروم مرتين، فالزم الإسكندرية رابطتها ثم أجر عليها أرزاقهم، وأعقب منهم في كل ستة أشهر"

وبلغت الحامية في عهد معاوية رضي الله عنه (٢٧) ألف جندي، منهم عشرة آلاف من أهل الشام وخمسة آلاف من أهل المدينة.

لقد كان المسلمون الأوائل يعتقدون أن الإقامة والعيش في المدن المرابطة نوع من الرباط والجهاد، ولأجل ذلك توجهت جموعهم الغفيرة للإقامة في الإسكندرية، وتوافد عليها أعداد ضخمة من العلماء شرقا وغربًا.

وهنا إشارة مهمة إلى كريم معدن أبناء الإسكندرية، فهم أبناء المرابطين والعلماء والزاهدين والمجاهدين، الذين ولجوا لهذا البلد، حسبة لله ورغبة في الثواب الجهاد، وهكذا كانوا على مر الزمان.

وحق للإسكندرية أن تكون أكثر بلدان المسلمين وصفًا بالرباط، فهي من أكثرها تعرضًا للعدوان والغدر من المحتل البغيض، لأنها بوابة مصر، فإن سقطت سقطت مصر ومن بعدها الشرق كله، وكلما أتى لمصر غاز لم يقصد أول ما يقصد غير الإسكندرية، فإن لانت له سهل ما بعدها، وإن استعصت عليه فشل عدوانه وخاب سعيه ومرامه.

إن بطولة أهل الإسكندرية تستحق الإشادة، وتستحق أن يقف عليها التاريخ كله، حتى نعتبر من هذه البطولات الفائقة، اقرأ إن شئت في تاريخ ابن الأثير في أحداث سنة (٥٧٠) وما جرى فيها من الهول على الفرنجة من أهل الإسكندرية، الذين لم يكونوا عساكر ولا جنودًا وإنما هم الأهالي البسطاء، وكان المعتدون آلافا مؤلفة من جنود الفرنجة، نزلوا موانئ الإسكندرية واستعدوا لاحتلالها، قال ابن الاثير:

"فوصلوا إليها على حين غفلة من أهلها وطمأنينة، فخرج أهل الإسكندرية بسلاحهم وعدتهم ليمنعوهم من النزول، وأبعدوا عن البلد، فمنعهم الوالي عليهم من ذلك، وأمرهم بملازمة السور، ونزل الفرنج إلى البر مما يلي البحر والمنارة وتقدموا إلى المدينة، ونصبوا عليها الدبابات والمجانيق وقاتلوا أشد قتال، وصبر لهم أهل البلد، ولم يكن عندهم من

العسكر إلا القليل، ورأى الفرنج من شجاعة أهل الإسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم".

وهي نفس البطولة التي حدثت حينما قدم نابليون لغزو مصر عن طريق الإسكندرية التي وصلها يوم ٢٨ يونيو ١٧٩٨وحينما أبلغ حاكمها أمراء المماليك فروا مذعورين، وجبنوا من لقاء الفرنسيين، بينما استبسل السيد محمد كريم ومعه أهالي الاسكندرية في التصدي للغزاة ومواجهة البوارج والمدافع الحديثة بأسلحة هزيلة حتى ضربوا أروع أمثلة البطولة، وقد ذكر أنهم كانوا يحاربون الغزاة من بيت لبيت، حتى أذلوا كبرياء العسكرية الأوروبية الصاعدة، وبلغت المقاومة الوطنية عنفوانها، عندما حاول نابليون أن يقتحم شوارع المدينة، فأصابته رصاصة قاتلة أفلت منها بأعجوبة، وقد قال واصفًا هذه الحادثة: "انهالت علينا طلقات الرصاص من إحدى نوافذ البيوت، فتقدم الحرس واقتحموا البيت، فوجدوا رجلا وامرأة قابعين خلف النافذة، وهما مستمران في إطلاق النار فقتلهما الحرس".

سجلات فريدة من النضال والجهاد لهذه البقعة المباركة المناضلة من أرض مصر، سجلها التاريخ ليذكرنا برصيدنا في الكفاح والنضال وبما كانت عليه أرضنا ورجالنا ونسائنا من رفض الظلم والعدوان.

ويقول الدكتور زكي مبارك في كتابه الحديث ذو شجون:

"إنما يهمني أن أسجل محامد مدينتنا هذه فأقول: إن سكانها الوطنيين يرجعون في الأغلب إلى عنصرين اثنين: العنصر الوافد عليها من الصعيد، وهو عنصر معروف بالعناد، والعنصر الوافد عليها من المغرب بعد سقوط الأندلس في أيدي الإسبان، وهو عنصر معروف بقوة المراس، ومن أجل هذا يرون الإسكندرانيين الوطنيين قومًا غلاظ الأكباد، يغضبون بسرعة ويستوحشون من الدخلاء كأهل المغرب وأهل الصعيد، أما سكان الإسكندرية من أهل الوجه البحري، فهم أقلية وهم مصدري اللطف الذي نلمحه في الإسكندرية من وقت إلى وقت في غيبة الغضب واللجاجة والعمد".

* * * *

المحتويات

الإسم **رقم الصفحة**

- **مقدمة** **٧**
- ❖ حقائق مكذوبة ١١
- ❖ التاريخ بين التزوير والتزويق ١٥
- ❖ احذروا لعنة التاريخ ٢٢
- ❖ كتابان جنيا على أمتنا ٢٨
- ❖ كلمة حانية إلى مبغضي معاوية ٣٣
- ❖ الطاغية الذي صوروه بطلًا ٣٨
- ❖ تشويه الأبطال ٤٦
- ❖ لا .. لن يعود ٥٤
- ❖ خساسة السياسة ٥٩
- ❖ الله على مصر الإسلامية ٦٤

الإسم	رقم الصفحة

❖ بين المقريزي وفولتير........ ٦٩

❖ بلد إشاعات ٧٧

❖ مُنقذ المصريين ٨١

❖ المشورة السوداء........ ٨٨

❖ الحاكم الذي فضحته أوروبا........ ٩٢

❖ الأزهر يقوم على يد يهودي........ ٩٥

❖ ثورة الفقهاء........ ١٠٠

❖ أموات يحكمون........ ١٠٥

❖ التناقض صفة أصيلة........ ١٠٩

❖ عظمة القرار........ ١١٣

❖ دموع المظلوم........ ١١٨

❖ البرامكة الأبرياء........ ١٢٥

الإسم **رقم الصفحة**

- دفاع عن العباسة.......... ١٣٣
- كان مجاهدًا ولم يكن ماجنًا.......... ١٤٠
- مواسم الرعب.......... ١٤٨
- المُرَقّعةُ و الشبهات.......... ١٥٤
- كذب لا يمكن السكوت عليه.......... ١٦٢
- جيش الأطفال وجيش العبيد.......... ١٦٨
- رسالة وحقا كانت رسالة.......... ١٧٣
- المرأة التي أضاعت دولة.......... ١٧٨
- التحول الخطير.......... ١٨٣
- داهية الدسائس.......... ١٩١
- عجبا، لماذا يعشقون الطغاة؟.......... ١٩٧
- عورات التاريخ.......... ٢٠١

الإسم	رقم الصفحة

❖ العبيدي العادل.. ٢٠٦

❖ العثمانيون إضاءات وظلامات.. ٢١٠

❖ الإسكندرية أرض المرابطين.. ٢١٧

• **المحتويات** **٢٢٢**

تم بفضل الله وحمده